مجلة جامعة الملك سعود، م ١١، العمارة والتخطيط، ص ص ١ - ٧١، (١٤١٩هـ/١٩٩٩م).

نمو النسيج العمراني للمستوطنات وتطوره في مرتفعات جبال السروات خلال مائة عام: "حالة دراسية" لقرية آل الخلف

محمد بن عبد الله بن صالح*

قسم العمارة وعلوم البناء، كلية العمارة والتخطيط، جامعة الملك سعود، الرياض، المملكة العربية السعودية

ملخص البحث. إن استناد الكثير من علماء العمران (الإنثروبولوجيا والاجتماع والعمارة) إلى وثائق التفصيلات البنيوية والشكلية للبيئة المبنية يعد أحد الأساليب العملية للتمثيل العمراني لوصف البيئة العمرانية التقليدية والانتقالية والمعاصرة. لذا اعتمد البحث على المنهج البنيوي لدراسة القواعد والأصول للشكل العمراني العضوي (التقليدي) والهندسي (الحديث) وربطها بمواد الإنشاء وأساليب البناء التي استخدمت في تنظيم المكونات البنائية التقليدية والحديثة في قرية آل الخلف بمرتفعات السروات بجنوب غرب المملكة. ولو فرّغ المرء العمارة الاستيطانية من علاقتها بالغرض لأصبح تصميم المدن والقرى مجرد فنٍ للأشكال العمرانية وهذا ما تم تجنبه في هذه الدراسة.

وبالنسبة لأسماء القرى التقليدية في المملكة العربية السعودية فتعزى إما لمسمى قبيلة أو فرد أو مكان أو حدث تاريخي أو خاصية تضاريسية للموقع أو لنشاط اقتصادي سائد. فسبب تسمية قرية آل الخلف بهذا الاسم يعود إلى مؤسسها خلف بن يعلى البشري أول من أقام بموقع القرية التي تعود نشأتها إلى أواسط القرن الحادي عشر الهجري، حيث اختار موقعها بعناية حسب أصول واحتياجات معينة، فالجبال الصخرية تحيط بها لتوفر حماية طبيعية لها والمسطحات الداخلية توفر لها رقعات زراعية

* يشغل في الوقت الحاضر منصب عميد الكلية.

لتسهيل الأعمال الزراعية فيها. وجاء اختيار الموقع متمشيا بشكل رئيسي مع عدم الاستقرار السياسي الذي كان سائدا في الجزيرة العربية على شكل غزوات قبلية على الساكنين.

هناك عديد من الاعتبارات التي عملت على تحديد النسيج العمراني لقرية آل الخلف التقليدية أهمها: التركيبة الاجتماعية والاحتياجات الدفاعية والضروريات الأساسية (الاقتصادية والمناخية). ولهذه العوامل دور مهم في نشأة وتشكيلها البنية العمرانية والاقتصادية للقرية في موقعها الحالي. فالمشاهد للمستوطنة يرى المساكن شبه البرجية المشيدة على أطراف المستوطنات وقد أدارت جدرانها الخلفية نحو الخارج وكأنها في مجملها سور دفاعي تتخلله دروب متعرجة رابطة المزارع المجاورة بالمساكن عبر سبل تكتظ بالمزارعين والحيوانات. وتحوي البيئة المبنية للمستوطنة مبان سكنية برجية مختلفة الارتفاعات وسوقا أسبوعيًا (الجمعة) ومساجد (جامع ومسجدين محليين) وقصبات (أبراج الدفاع والتحذير) وبيت مال (المِعْشر) ومدافن (مخازن حبوب وغلات زراعية) ومقبرة. كما أن المحيط الخارجي للمستوطنة يحوي العديد من المزارع بآبارها المميزة وعددا من الأبراج الدائرية لأغراض الدفاع والمراقبة. وتغطي هذه العناصر معظم الأراضي المملوكة للمستوطنة مبقية فقط على فراغات ضيقة لأغراض الحركة (أزقة وساباطات مغطاة). ويعدُّ تصميم المباني في المستوطنة وكذا الأبعاد الخاصة بفراغات الحركة مظهرين بارزين في معمارها، مع قيام الشكل البنائي للقرية بتأكيد الارتباط بالأرض أكثر من أي شكل من أشكال التعبير الآخر إضافة إلى تحقيق حوار بصري مع الجمال الطبيعي والصنعي.

برز التباين في أنماط العمران للقرى في مرتفعات جنوب غرب المملكة نتيجة للتطور التاريخي للمباني السكنية والثقافية والدينية. فالمسجد منذ القدم هو نواة النسيج العمراني للحي السكني، وله أهمية دينية معنوية في عمارة وتخطيط الحي والقرية. غير أن التراجع المستمر في مفاهيم التخطيط العمراني المحلي أمام المد الفكري القادم من الغرب قد أوهن ذلك التأثير. لذا كان لابد من نظرة تدعو المخططين والمعماريين والباحثين في مجال التخطيط والعمارة إلى التمهل وإعادة النظر في موقفهم من تضمين التراث العمراني والمعماري عند تصميم الأحياء والمباني العامة والخاصة في البيئة العمرانية وتخطيطها بحيث لا يقتصر الأمر على مجرد الدراسة التسجيلية، بهدف توثيق ذلك التراث الغني المعرض للضياع مع الزمن، بل السعي إلى استيعابه وفهمه وإدراك المعاني الكامنة في تراكيبه وأشكاله. من هنا تأتي أهمية هذا البحث الذي يتناول بالتحليل العناصر التخطيطية والمعمارية والفنية والزخرفية الموجودة في أنماط العمران للقرى وخاصة في قرية آل الخلف بمرتفعات جبال السروات جنوب غرب المملكة العربية السعودية، وذلك من أجل محاولة الاستفادة منها والوصول إلى صياغة معاصرة لها في مواجهة التيارات المعمارية والعمرانية الجارفة و الوافدة. وهنا نرى أن تَشَكُّلَ السمات والخصائص المحلية للمظهر العام لقرية آل الخلف يعد بعدا للطرق التي يمكن للتنميات الجديدة أن تؤكد وتُبْرِز من خلالها.

المقدمـــــة

لما أسس خلف بن يعلي البشري هذه القرية، واستوطن بها، أمر أبناءه وأحفاده بالإقامة بها وإعمارها، إذ اختار موقعها بعناية حسب أصول واحتياجات معينة. فالجبال والأودية تحيط بالموقع المختار للمستوطنة الذي هو عبارة عن تبة صخرية مرتفعة عن الأودية المحيطة. هذه الخصائص الطبيعية تقوم بتوفير حماية طبيعية من مياه الأمطار ومن الغزاة والغرباء. كما أن المسطحات المستوية حول التبة توفر لها رقعات زراعية موسمية تعتمد على الآبار ومياه الأمطار. ويجيء اختيار الموقع متمشيا بشكل رئيسي مع القواعد الملائمة لتوفير الأمن والحماية بسبب عدم الاستقرار السياسي في شبه الجزيرة العربية قبل تأسيس المملكة العربية السعودية عام ١٣٥٣هـ على يد المغفور له الملك عبدالعزيز بن عبدالرحمن آل سعود. تمثل ضعف الأمن والحماية في أشكال عدة أبرزها الغزوات القبلية على الساكنين من قبل البدو الرحّل أو المستوطنين من قبائل أخرى في أماكن متفرقة من شبه الجزيرة العربية.

من أهم الانطباعات التي تتراءى للمرء عند رؤية المستوطنات في مرتفعات جبال السروات التي ظهرت قبل ما يسمى بالمدينة الصناعية أن سكانها بذلوا أقصى ما يمكن من جهود للاستفادة من الموارد الطبيعية والإمكانات التي كانت متاحة لهم من وسائل وطرق للبناء والتشييد، وقابل ذلك المحافظة على الموارد الطبيعية من مياه وغابات والتي قامت على أساس الاستغلال الأمثل للمواد والموارد المحلية عند تطوير العمليات الإنشائية وأساليب البناء والتصميم بخبرة محلية وهذه الانطباعات دعت الكثير من الباحثين والمهتمين بالعمارة والعمران إلى توثيق مثل تلك الإنجازات.

بُدِئَ في العقدين الأخيرين من القرن العشرين بتوثيق نشأة المستوطنات البشرية التقليدية ودراستها في أرجاء العالم المختلفة. ففي اليونان قامت مجموعة متحمسة من المعماريين اليونان بتوثيق نمط النمو والتحضر لخمسين مدينة وقرية يونانية مع التركيز على الجوانب العمرانية والثقافية والبيئية. وقد كشفت الدراسة عن تفاوتات مهمة في جوانب عديدة يجدر التعرف عليها ورصدها، مثل وضع القرية، وأشكال البناء فيها، والمواد البنائية، والسمات المعمارية في بلد غني بتراثه الحضاري كاليونان [١].

وفي المملكة العربية السعودية جذب نشوء المستوطنات البشرية في المملكة العربية السعودية ونموها اهتمام العديد من الدارسين والباحثين المحليين، بدئت بدراسة قام بها "مصلي وآخرون" في عام ١٩٧٧م إذ تركزت الدراسة على دراسة النمط المعماري والعمراني لمدينة المجمعة في نجد[٢]. تلتها دراستان أعد الأولى "الهذلول" عام ١٩٨٣م بحث فيها مراحل نمو وتحضر قرية البدائع التي نشأت في أواخر القرن التاسع عشر في محاولة منه لتوثيق النمو العمراني لتلك القرية. والثانية قام بها "المبارك" عام ١٩٩٢م[٣، ص ص١٣٧-١٦٩؛ ٤]. بحث فيها نشوء وتطور مدينة حريملاء وتطورها والتغيرات التي صاحبت بنيتها العمرانية. وفي عام ١٩٨٧م قام "آل زلفة" بدراسة مقارنة الاختلافات المعمارية في منطقة عسير[٥]. وفي عام ١٩٨٥م أوضح "الشايب" في مسحه المعماري مكونات البيئة العمرانية لقرية الجبيل في محافظة الأحساء بالمنطقة الشرقية من المملكة العربية السعودية[٦]. وفي عام ١٩٩٠م ركز فريق من المعماريين والمخططين برئاسة القحطاني البحث على الموروث المعماري للمنطقة الجنوبية [٧]. وتكملة لما سبق قيام الباحث منذ أربعة أعوام بمسح قرية آل الخلف بمنطقة عسير بالجزء الجنوبي الغربي من المملكة العربية السعودية، وإعداد مخطط معماري توضيحي للقرية وذلك في محاولة لمعرفة حقيقة نشأتها ونموها العمراني [٨]. تلا ذلك تتبع العمارة للقرية وتوثيقها مرسيا بذلك أسلوبا لتوثيق النسيج العمراني للقرية، وإبراز عناصرها المعمارية والعمرانية.

يقوم هذا البحث بدراسة الأنماط العمرانية التقليدية المختلفة في قرية آل الخلف من وجهة نظر مكانية شملت تحليل العوامل التي أسهمت خلال المراحل التاريخية المختلفة في تشكيل القرية. لقد دأب الناس على أن يأخذوا في الاعتبار عدة أمور خلال نشأة القرى التقليدية ونموها كالدفاع، والاتساق الاجتماعي، ووفرة الموارد الطبيعية، والحفاظ على الأراضي الزراعية. لقد حملت نشأة قرية آل الخلف في ثناياها دعم النمو العائلي من خلال الامتداد الأفقي والرأسي لمبانيها والدفاع عنها ضد الغزوات القبلية مما أثر على تكوينها كقرية دفاعية كما هو ماثل في التركيبة العمرانية والاجتماعية لمكوناتها. يزاول سكان قرية آل الخلف أسوة بغيرهم من سكان جبال السروات نشاط الزراعة الكفافية كحال معظم

سكان الدول النامية الممارسين لهذا النشاط في المناطق الريفية، إذ لا خيار هناك سوى الزراعة والرعي من أجل العيش والبقاء.

منهجية البحث

ركز البحث على دراسة النسيج العمراني لقرية آل الخلف، نظرا لتميز القرية وانفراديتها عن العديد من المستوطنات في مرتفعات جبال السروات والتي تزيد على أربعة آلاف قرية. فمن وجهة نظر مكانية شملت الدراسة تحليل العوامل التي أسهمت خلال المراحل التاريخية المختلفة في تشكيل النسيج العمراني المميز لها.

يستند كثير من علماء العمران (الإنثروبولوجيا والاجتماع والعمارة) على وثائق التفصيلات البنيوية والشكلية للبيئة المبنية كأسلوب للتمثيل العمراني لوصف البيئة العمرانية التقليدية والانتقالية والمعاصرة. يشمل وصف الشكل العمراني، ولا يقتصر على أنماط الحركة وعروض ممراتها، وأنواع المباني وارتفاعاتها وطرزها [٩-١٢]. اعتمد البحث على المنهج البنيوي (الشكلي) لدراسة قواعد وأصول الشكل العمراني العضوي (التقليدي) والهندسي التركيبي (الحديث)، وربطها بمواد الإنشاء، وأساليب البناء التي استخدمت في تنظيم المكونات البنائية التقليدية والحديثة في قرية آل الخلف.

لقد كانت هناك أربعة مسارات للبحث:

المسار الأول: عُمِد فيه إلى تصنيف صور المسح البصري والرصد الميداني للمكونات العمرانية الأساسية للمستوطنة عن طريق الرحلات الميدانية المتتابعة وتحليلها، فالأعمال الميدانية في قرية آل الخلف أنجزت خلال خمس زيارات ميدانية إبان الفترة الممتدة من ١٩٩٠-١٩٩٧م.

المسار الثاني: تم توثيق الشكل البنائي والنسيج العمراني للمستوطنة عن طريق إعداد مخططات توضيحية نظرا لغياب المصورات الجوية، وأية مخططات ناتجة عن مسوحات سابقة. وعلى الرغم من عدم وجود تفاصيل للمخططات المعدة فقد أسهمت بدور فاعل في هذا البحث إذ شكلت مرجعية لإعداد النسيج العمراني للقرية وفهمه.

المسار الثالث: يشمل تبيان الدروس التي يمكن تعلمها من التجربة التراثية لقرية آل الخلف كنموذج تقليدي للبيئات السكنية وقيمة هذه الدروس وأثرها في تخطيط البيئات السكنية الحالية وتنميتها.

المسار الرابع: شمل استطلاع تم فيه رصد المعالم البارزة في المستوطنة أعقبه مسح كامل وتفصيلي يمكن أن يعطي الأولوية لقطاعات أو جوانب معينة من القرية تحتاج لإجراءات تخطيطية فورية.

التقسيمات الجغرافية لجبال السروات

يمكن تقسيم إقليم جنوب غرب المملكة (الشكل رقم ١) إلى أربعة قطاعات جغرافية مختلفة هي: تهامة الساحل، تهامة الأصدار، السراة ثم الهضبة الانتقالية المنحدرة إلى نجد (الشكل رقم ٢).

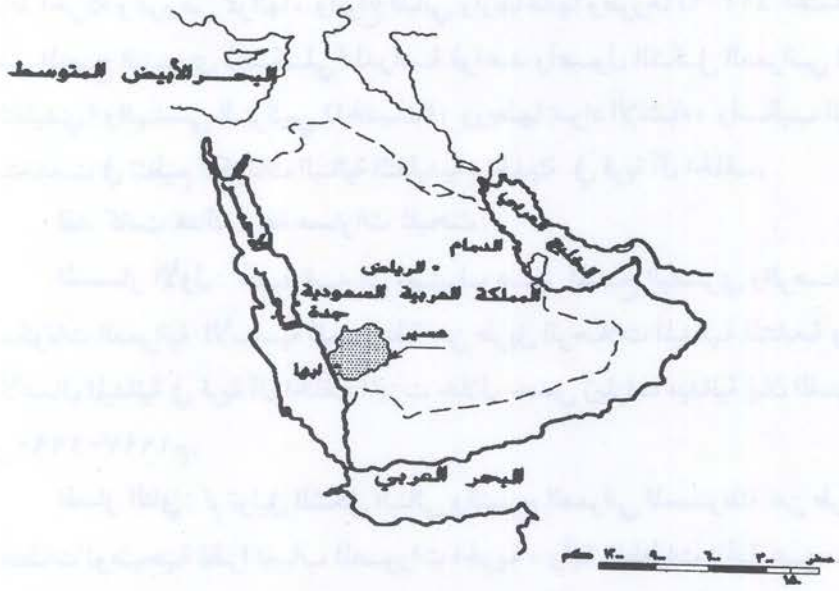

الشكل رقم (١). خريطة توضح موقع منطقة جبال السروات بالنسبة للمملكة العربية السعودية.

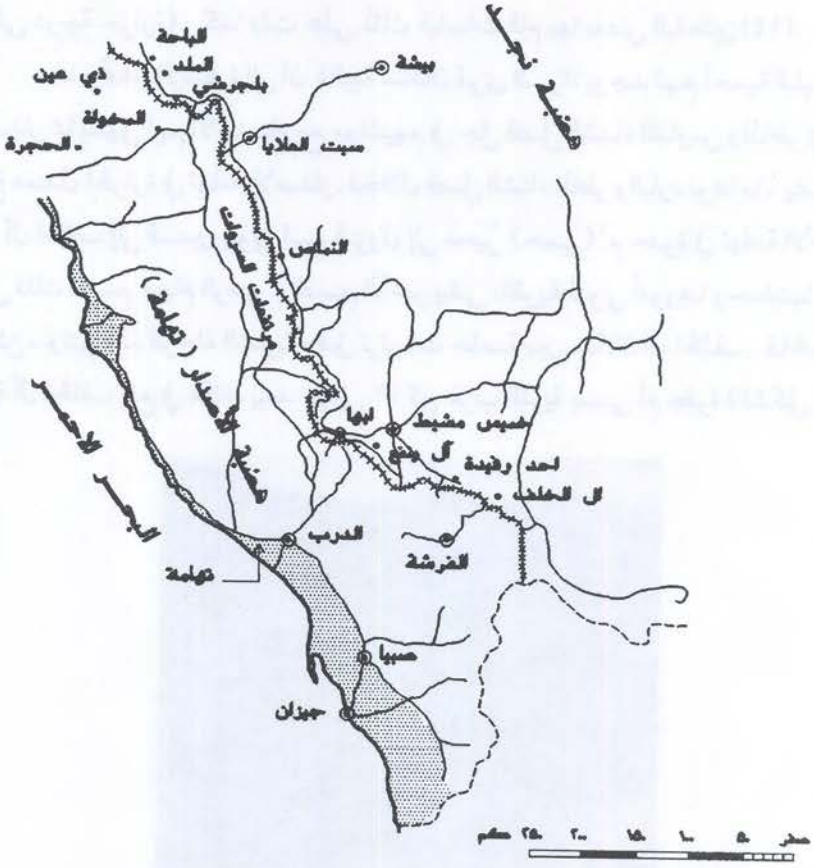

الشكل رقم (٢). خريطة توضح التقسيمات الجغرافية لجبال السروات وموقع قرية آل الخلف جنوب شـــرق مدينة أبها بمنطقة عسير.

الحد الغربي لقطاع السراة عبارة عن انحدار جبلي سحيق (شفا) باتجاه شمال - جنوب يفصل السراة عن تهامة، وقرية آل الخلف واقعة على بعد ثلاثة كيلومترات إلى الشرق من الانحدار على علو ٢٤٠٠ متر فوق سطح البحر مما أضفى عليها مناخا لطيفا وأمطارا موسمية مواتية لمزاولة نشاط زراعي مكثف[١٣]. فالاعتماد يتركز على مياه الأمطار للزراعة العثرية، والآبار المحفورة للزراعة الموسمية. تتراوح درجات الحرارة لقرية

آل الخلف ما بين ٤ درجات مئوية في شهر يناير (أقل درجة حرارة) و٣٤°م في شهر يوليو (أعلى درجة حرارة)، كما دلت على ذلك قياسات قام بها بعض الباحثين[١٤].

هذا وتجدر الإشارة إلى أن غالبية سكان قرى السراة يوجد لهم أحمية قبلية في تهامة الأصدار مما يسهل لهم الاستمتاع مع مواشيهم في جل فصل الشتاء القارس والماطر في قراهم، بمناخ معتدل الحرارة في تهامة الأصدار. فخلال فصل الشتاء الماطر والبارد نوعا ما، ينقسم سكان قرية آل الخلف إلى قسمين يتولى قسم النزول إلى مَحيَرْ (حمى) أم جفرة في تهامة الأصدار، إذ يتولى ذلك القسم مهام الرعي والقسم الآخر يبقى بالقرية لتولي أمورها وحمايتها من أيدي العابثن، وتتم هذه الرحلة الشتوية وفق ترتيبات خاصة بين سكان آل الخلف. فالحمى القبلي لقرية آل الخلف يقع في مكان يبعد حوالي ١٢كم غرب القرية يسمى أم جفرة (الشكل رقم ٣).

الشكل رقم (٣). منظر لتهامة الأصدار قرب حمى قرية آل الخلف المسمى "أم جفرة".

بعد تأسيس المملكة العربية السعودية عام ١٣٥٣هـ (١٩٣٢م) انحسر التفكير في العنصر الدفاعي ضد غارات الأعراب وغزوات أهل القرى المجاورة المناوئة، وأخذ يتضاءل حتى تلاشى كليا، وغدت القرية في جبال السروات تشهد بناء المساكن المتجاورة والمتباعدة. وبالتأكيد فإن النسيج العمراني والصناعي للقرية بالنسبة للبنائين المحليين لم يكن مسألة علاقات هندسية وإجراءات حسابية كما هو متبع في ممارسات اليوم المعمارية والعمرانية فالكثير من الممارسين غاب عن بالهم أن عملية تكوين البيئة العمرانية كانت نتاج فهم كامل للاحتياجات الأساسية للإنسان وللوظائف المرتبطة بها. وينعكس هذا على البيئة العمرانية التقليدية للمدينة الإسلامية التي جاءت نابعة من احتياجات سكانها وملبية لأمانيهم وطموحاتهم والتي فسرها ماديا البناءون وصناع القرار المحليون.

هناك ثلاثة اعتبارات عملت على تحديد النسيج العمراني لقرية آل الخلف التقليدية، وهي التركيبة الاجتماعية، والاحتياجات الدفاعية، والضروريات (الاقتصادية والمناخية). فالمشاهد للقرية يرى المساكن البرجية المشيدة على أطراف البلدة وقد أدارت جدرانها الخلفية نحو الخارج وكأنها في مجملها سور دفاعي تتخلله دروب متعرجة رابطة المزارع المجاورة بالمساكن. وتحتوى البيئة المبينة للقرية على مبان سكنية برجية مختلفة الارتفاعات، وثلاثة مساجد، وأربع عشرة قصبة، وبيت مال، ومخازن حبوب وغلات زراعية مدفونة. كما أن المحيط الخارجي يحوي عددا من الأبراج الدائرية لأغراض الدفاع والمراقبة والمزارع بآبارها المميزة. وتغطي هذه العناصر معظم أراضي القرية مبقية على فراغات ضيقة لأغراض الحركة وأزقة وساباطات تذكر سابقا.

وَيُعَدُّ تصميم المباني وكذا الأبعاد الخاصة بفراغات الحركة مظهرين بارزين في معمار القرية، مع قيام الشكل البنائي للقرية بتأكيد الارتباط بالأرض أكثر من أي شكل من أشكال التعبير الأخرى، إضافة إلى تحقيق حوار بصري مع الجمال الطبيعي والصنعي. ونتيجة لهجر الكثير من الأهالي منازلهم خلال الخمس سنوات الماضية بعد قيامهم ببناء منازل خرسانية خارج البنية المبنية القديمة فقد أتى الإهمال على الكثير من المباني التقليدية، فتردت حالتها، واضمحلت، ودفنت معها سلسلة جهود إنشائية بذلت في تشييدها.

لقد كان اختيار موقع قرية آل الخلف اختيارا حكيما، روعيت فيه الاحتياجات الاقتصادية والمعمارية، والأمنية، وأتاحت الظروف الجغرافية والأحوال المناخية المواتية فرصة طيبة للرخاء وإن كانت الحياة الزراعية والرعوية ليست وادعة بكاملها، فنساء القرية كن يقمن برعي الماشية في الهضاب المرتفعة للسلسلة الجبلية خلال النهار، وغالبا ما كن يعملن على تحذير المزارعين في الحقول الزراعية من الأخطار القادمة من السهول المنخفضة. وقامت الجبال المحيطة بالقرية من الجنوب والغرب بتوفير عائق طبيعي أمام غزوات وغارات الأعراب المتكررة والتي انتهت وزالت مع بداية العقود الستة الأخيرة، كما شكلت تلك السلسلة الجبلية مصدا طبيعيا لرياح الشتاء الغربية الباردة.

نتيجة للتغيرات الاجتماعية والاقتصادية بعد الرخاء الاقتصادي الذي عم البلاد بعدما قامت الحكومة بتنفيذ ست من خطط التنمية الخمسية ابتداءً من عام ١٣٩٥هـ، أصبح أمر الهجرة للكثير من الأهالي ملحا، وذلك لتلبية متطلبات التغير في نمط الحياة وتوقعاتها. كما أن التغير في متطلبات الحياة وزيادة أفراد الأسرة الواحدة جعل من الممكن بناء مبان سكنية خارج بنية المستوطنة الأصلية. ويعد بناء المنازل والمساجد من الخرسانة المسلحة وخارج البنية المبنية القديمة كنوى لأحياء جديدة أمرا مألوفا.

خلفية تاريخية

العمارة الإقليمية لقرية آل الخلف

تأكيد الهوية الذاتية في التخطيط والتصميم

تقع قرية آل الخلف ضمن القطاع الجغرافي الثالث بإقليم عسير في الجزء الجنوبي الغربي من المملكة، وقد اختار خلف بن يعلى البشري موقع القرية على تبة مرتفعة عن الوادي المشكل من سلسلة جبلية محيطة بالقرية من ناحية الغرب والجنوب، وبجزء من شرقها، وتسمى هذه الجبال "طوُر الخيالة" وطور "نطوان". وقد طوّر المؤسس وأولاده من بعده الوادي وحسنوا مجاري سيوله ليضم الأراضي الزراعية المحيطة بالتبة (القرية لاحقا). وتشكل الأراضي الزراعية المحيطة من الشمال والغرب والشرق خطا دفاعيا طبيعيا للقرية (الشكل رقم ٤).

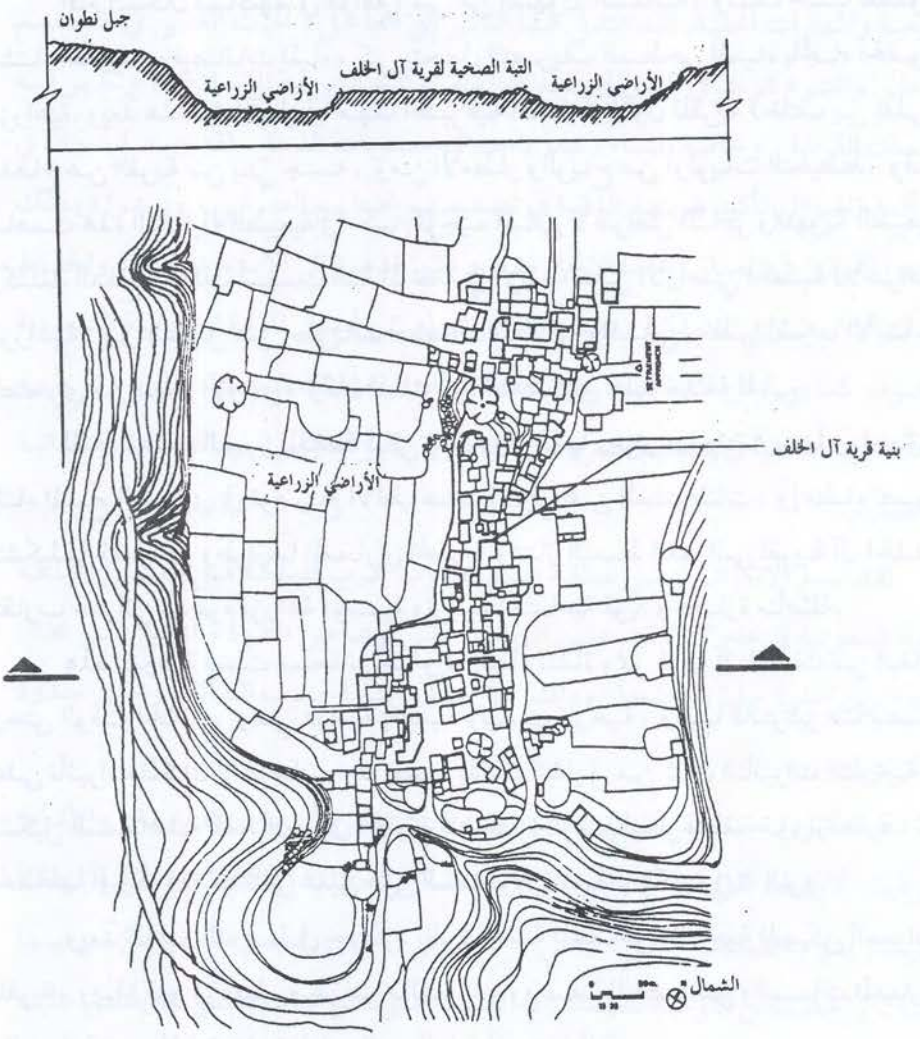

الشكل رقم (٤). مخطط قرية آل الخلف يوضح موقع القرية فوق تبة صخرية مرتفعة عن الوادي وتحيط بها الجبال والمزارع من ثلاث جهات مما عزز من قدرتها الدفاعية ضد غارات الأعراب والمعتدين.

التشكيل العمراني لقرية آل الخلف

يعتمد تفسير أنماط التشكيل العمراني للقرى الريفية على عدد من العوامل المختلفة تبعا للزمان والمكان. ويمكن القول بأن مجمل تاريخ الحضارة ماثل في التشكيلات الحالية للمستوطنات البشرية إلا أن تشكيلات اليوم ليست كأشكال الأمس إذ ندرك هنا وهناك شواهد نُشُوئِهَا ونَعِيهَا.

قبل تأسيس المملكة العربية السعودية على يد الملك عبدالعزيز بن عبد الرحمن آل سعود - يرحمه الله - في عام ١٣٥٣هـ، كانت حدود الأراضي تنظم على أساس قبلي. فكل قرية تعرف حدودها التي ترعى فيها وتحتطب منها، لكنها لم تكن بالحدود الثابتة لتغيرها وفق معاهدات واتفاقيات بين القبائل، وغالبا مَا يُلْجَأ إلى وضع مراسيم (علامات) وأنصاب للدلالة على ذلك [١٧]. وفي أغلب قرى السراة وعند تداخل الأراضي الزراعية غالبا ما تبنى قصبة تسمى الرهوة كعلامة حدود بين أملاك القرى (الشكل رقم ٥).

الشكل رقم (٥). تشكل قصبة الرهوة الدائرية رمزا للحدود بين أملاك القرى بجنوب غرب المملكة.

كان التخطيط العمراني لقرية آل الخلف يشمل مسجدا جامعا إضافة إلى عدد اثنين من المساجد المحلية، ومسجد عيد، والمناطق السكنية بأحيائها الاثني عشر، والمباني العامة مثل بيت المال و(٢٦) قصبة، مقبرة، سوق أسبوعي ومزارع ومدافن للحبوب (الشكل رقم ٦).

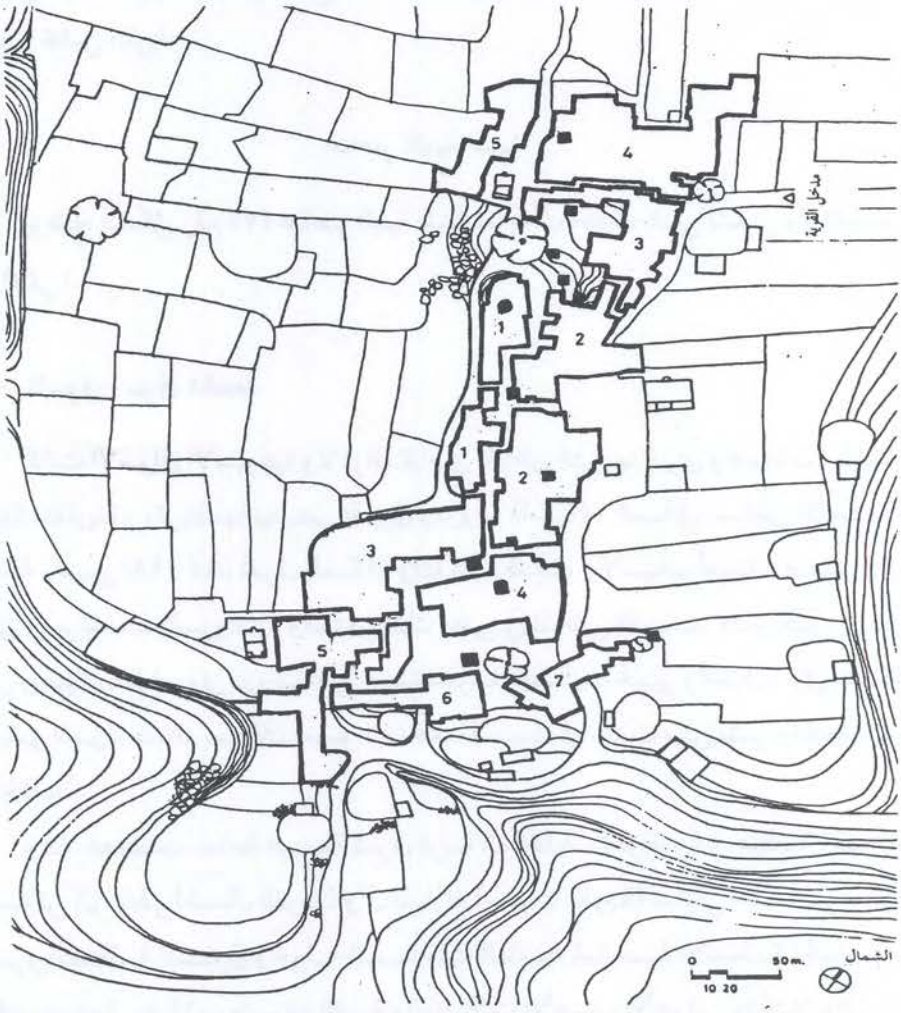

الشكل رقم (٦). يتميز الشكل العمراني لقرية آل الخلف بوجود اثني عشر حيا سكنيا، كل حي له قصبته المربعة، وهويته المميز به بالطرقات المتعرجة والساباطات.

هذه المكونات مكنت من الإبقاء على الإحساس بتماسك وتلاؤم القرية، وقد عظم ذلك عندما كانت القرية أكثر بعدا عن المدن والمراكز الحضرية. وكانت الأراضي المفتوحة في القرية تعد ملكية عامة يديرها شيخ أو نائب القرية ضمن مجلس القرية التقليدي. أما الأراضي القابلة للزراعة فيقوم الشيخ أو النائب بتوزيعها وإدارتها وفق الصالح العام بعد استشارة مجلس القرية.

عناصر البنية المبنية

يوضح الشكل رقم (٧) عناصر البنية المبنية لقرية آل الخلف التي تشمل ولا تقتصر على الآتي:

١ - السوق: سوق الجمعة

كانت الأسواق الأسبوعية ولا تزال تقام في المناطق التي بها قرى وتجمعات سكانية عديدة متقاربة، وتربطها ببعض طرق ودروب (آمنة)، كما في مناطق الإحساء والباحة وعسير[١٨]. كان تحرك السكان وانتقالهم قديما، ولأسباب أمنية، صعبا بين القرى في مرتفعات السروات، واستمر ذلك حتى في الماضي القريب. فلم يكن يربط القرى بعضها ببعضا سوى دروب غير ممهدة تعبرها الجمال والحمير والبغال، وفي منطقة بني بشر السراة هناك سوقان أسبوعيان هما السبت في سبت بني بشر والجمعة في "آل الخلف".

وقد خصصت ساحة البسطة شرق قرية آل الخلف (الوطن) في منطقة وسطية بين مساكن آل المطر (شمال القرية) وآل المبارك (جنوب القرية) سليلي خلف بن يعلى البشري كمنطقة للسوق وحوله الساحات العامة لممارسة الأنشطة الجماعية والاقتصادية واستقبالات ضيوف القرية واحتفالات الأعياد والأعراس والختان والعزاء (الشكل رقم ٨).

الشكل رقم (٧). مخطط قرية آل الخلف يوضح تميز نسيجها العمراني عن غيرها من القرى بمنطقة عسير، وذلك بمبانيها العالية وطرقها، المتعرجة والمغطاة أحيانا وفراغاتها المفتوحة.

الشكل رقم (٨). منظر لساحة البسطة (شرق القرية)، يلاحظ أن تجمع المصلين بعد صلاة الجمعة في الساحة أصبح أمرا مألوفا.

كان سوق الجمعة في قرية آل الخلف تعدّ نشاطا بارزا في حياة المجتمع التقليدي، يرتاده في ذلك اليوم سكان القرية والقرى المجاورة لتبادل السلع والبضائع والأخبار، وفي ذلك اليوم يبرز كرم ضيافة أهل القرية، إذ يقوم المدول (الرجل الذي يتولى توزيع الضيوف بطريقة تسمح لجميع السكان بالمشاركة في الضيافة) بتوزيع الضيوف من القرى المجاورة على العائلات في آل الخلف، إذ تستقبل كل عائلة عددا معينا ومرتبا من الضيوف تبعا لحالتها الاقتصادية.

وكانت تزاول في هذا السوق المعاملات التجارية من بيع وشراء ومقايضة وفق أعراف السوق، وقلما كانت بالنقد. كما يلتزم السكان بحماية محتويات السوق لمدة ثلاثة أيام هي اليوم السابق للسوق، ويوم السوق والذي يليه، وكان يتم تقسيم السوق إلى قطاعات يقوم على أداء كل منها مشرف بهدف المساعدة في حماية السوق والمتسوقين،

وكذا الترحيب بمرتادي السوق لعدم وجود نزل أو مطاعم آنذاك ، إلى جانب إدارة شؤون السلع والبضائع ويتقاضى كل مشرف عمولة على المبيعات في السوق يتفق عليها من قبل مجلس القرية.

وكانت معظم المعاملات التجارية بالأسواق الأسبوعية تتم بالمناطق المفتوحة والتي تحتاج إلى تخزين في بعض المحلات المجاورة لساحات السوق (الشكلان رقما٩ ، ١٠) والسلع والبضائع. وقد طرأ على الأسواق الأسبوعية نوع من الانكماش بدأ يتزايد وأخذت تنحسر في ضوء تزايد نشاطات التسوق اليومية وتوافر وسائل المواصلات والطرق التي سهلت الوصول إلى أسواق المدن والقرى المجاورة.

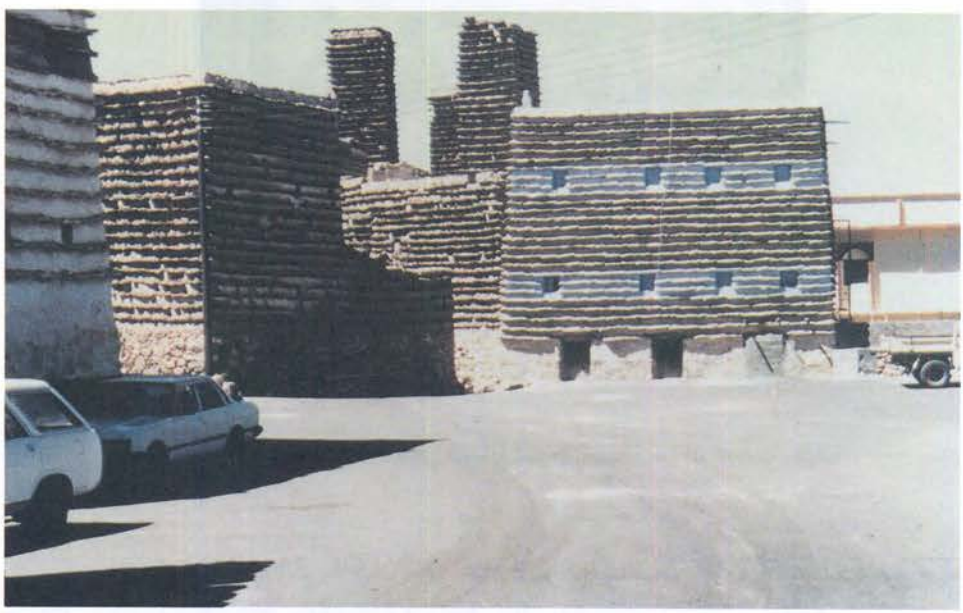

الشكل رقم (٩). منظر داخل ساحة البسطة يوضح عددا من المحلات التي يتولى أصحابها مهمة تخزين بعض الاحتياجات اليومية لمرتادي السوق.

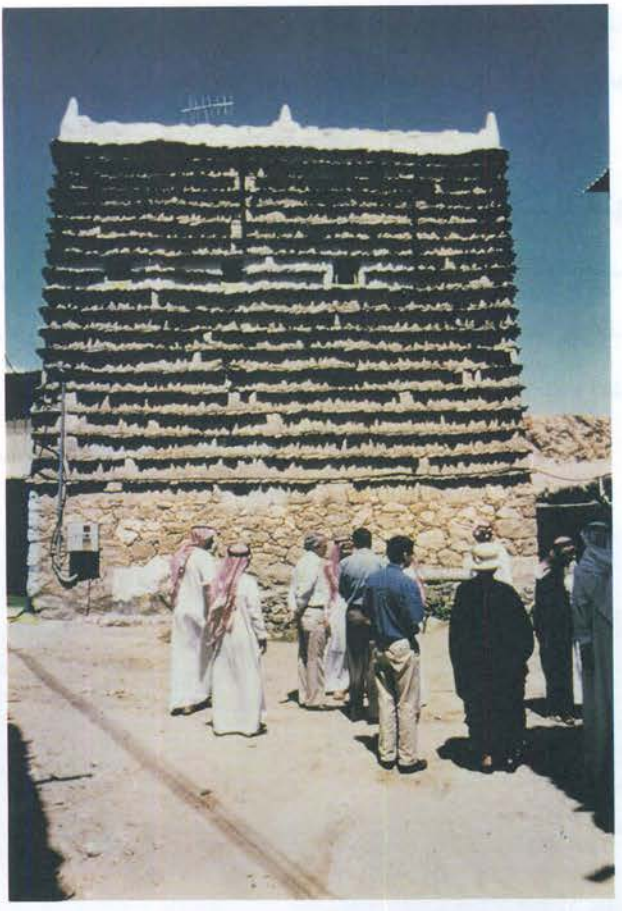

الشكل رقم (١٠). منظر زيارة بعض السياح لساحة البسطة بعد أن اختفت وظيفته.

حسب قول نائب القرية كان آخر عام لسوق الجمعة في قرية آل الخلف هو عام ١٤٠٣هـ عندما رُبِطتَ آل الخلف بالخط الأسفلتي الواصل لسراة عبيدة وأبها وخميس مشيط ونجران وظهران الجنوب. وقد افتتحت في عام ١٤١٦هـ بقالة للسلع اليومية في قرية آل الخلف.

٢ - بيت المال (خزانة القرية)

بيت المال هو خزينة الدولة في الإسلام، حيث كان المجتمع الإسلامي يزاول (ولا يزال) نظاما ماليا عاما يسمى بيت المال أو الخزانة العامة، تجبى إليه الأموال العامة من العديد من المصادر، ثم تخرج منه لتصرف في كل وجه من أوجه الخير ترضى فيه الجماعة، ولجميع المسلمين أسهم متساوية في ذلك النظام المالي. ففي مجتمع قبائل السراة الزراعي والرعوي، طورت القبائل نظام التمويل إذ كان يؤخذ عُشر الزروع ليخزن في بيت مال القرية (المعشر). وكان لكل قرية خزانتها توضع عادة في المسجد الجامع أو في مكان آمن، وبالقرب من مراقبة الناس. وقديما كانت الواردات لبيت مال آل الخلف تتألف من جباية العشر من منتوج الزراعة والثروة العامة، وكذلك الأموال التي تصل للقرية كهبات أو معونات أو ديات أو غرامات، ويجبى العشر من المزارعين بواسطة المعشرين، وتوضع في الخزانة لتنفق في أوجه مخصوصة في مصالح المجتمع.

وكان يقوم على بيت المال في قرية آل الخلف أربعة معشرين يعينهم الشيخ أو النائب وعقلاء القوم. ويعين الشيخ أو النائب أمينا للخزانة. كما أن النسبة نفسها تؤخذ عن السائمة (الماشية) المنتجة كالإبل والبقر والماعز والغنم التي ترعى الكلأ النابت نبتا طبيعيا، وكان العشر يحدد كنسبة مئوية من جملة الإنتاج الزراعي، ويخزن مباشرة في المعشر. أما الماشية فتؤخذ وتباع في سوق الجمعة، ويودع ريعها في بيت المال لصالح القرية.

وكانت مسؤولية المعشرين موزعة بالتساوي من بيع للحاصلات الزراعية والماشية وحفظ الغلة في الخزانة لتمويل نفقات القرية.

وتلك النسب خارجة عن الزكاة الشرعية للأموال التي جعلتها الشريعة طهرة للمال. وبيت المال مفتوح دائما لمن يرغب في دفع زكاة أمواله مما يخفف من عبء توزيعها.

وبيت مال قرية آل الخلف (المعشر) عبارة عن مبنى بدور واحد يقع جنوب سوق الجمعة.

٣ - القصبات (أبراج المراقبة والدفاع)

يوجد في القرى التي تقع شمال أبها (حوالي ٣٠كم) والتي تقع جنوب أبها الكثير من المباني العالية التي تسمى الواحدة منها قصبة، وهي مبنية بالطين، أو الحجارة، أو بهما معا، وقد صممت هذه المباني لأغراض الدفاع والتحذير وكأعلام لاستعداد أهل القرى للدفاع عن ممتلكاتهم.

قام سكان قرية آل الخلف بتشييد ست وعشرين قصبة (أبراج مراقبة ودفاع) في مواقع ممتازة مشرفة على الحقول والمدرجات الزراعية والسوق الأسبوعي والأحياء السكنية، وذلك لأغراض الاستطلاع والمراقبة في الليل والنهار (الأشكال من١١ إلى ١٣). ونظرا لأهميتها الدفاعية والرقابية فقد صممت مداخلها تصميما محكما يجعل من الصعب اقتحامها، فبالإضافة إلى الهدف الأساسي للقصبة وهو المراقبة والدفاع فإن القصبة تستخدم كمستودع لتخزين الحبوب، أيضا.

الشكل رقم (١١). يتميز النسيج العمراني لقرية آل الخلف بتعدد القصبات المربعة ذات الارتفاع العالي الذي يصل إلى ٣٠م.

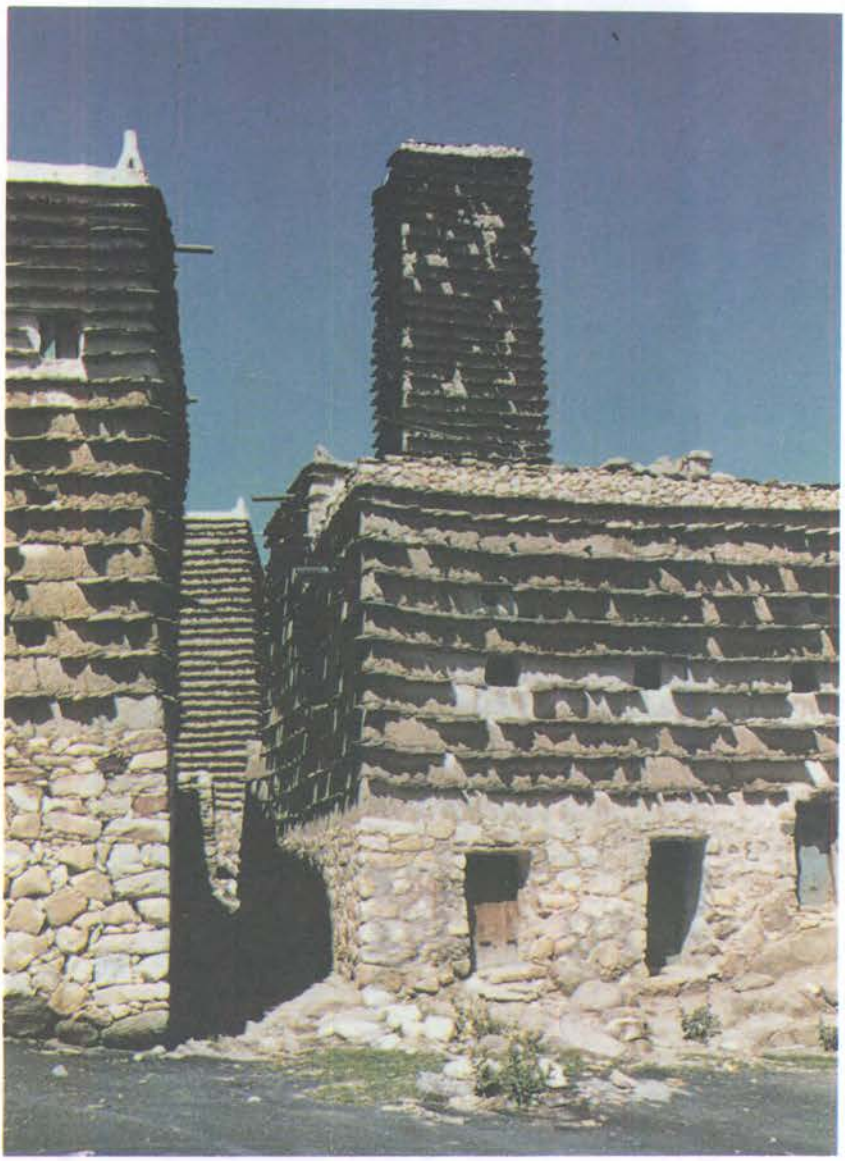

الشكل رقم (١٢). صورة توضح سيطرة القصبة على ساحة البسطة (سوق الجمعة).

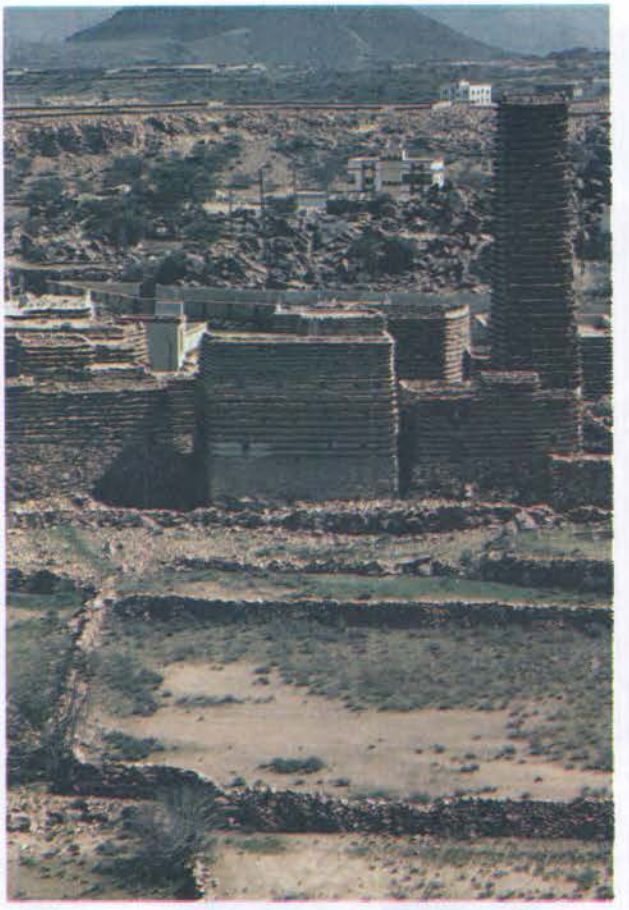

الشكل رقم (١٣). صورة لإحدى القصبات المربعة توضح التباين بينها وبين المباني من ناحية الارتفاع.

وغالبا ما تبنى القصبة على المرتفعات، وتكون لها قاعدة دائرية إذا كانت خارج المباني (الشكل رقم١٤) أو مربعة إذا كانت داخل القرى، والقصبة لاتتسع إلا لعدد قليل من الرجال يرابطون فيها فترة قصيرة للمراقبة، والدفاع. وكان أهل مرتفعات السروات، يعمدون أحيانا إلى إشعال النار وإطلاق الدخان إيذانا بالخطر [١٩].

الشكل رقم (١٤). تتميز قصبات المزارع بشكلها الدائري وأبوابها المواجهة للقرية لغرض حمايتها من الرمـــاة فوق القصبات الأخرى داخل القرية.

ويعنى أصحاب القصبات بها عناية فائقة، ولا يحرصون فقط على أن تكون قوية منيعة بل جميلة كذلك، فيزينون أبوابها ومنافذها وأجزاء من واجهاتها بأحجار ملونة أو بالرقف وغالبا ما تسمى القصبات الدائرية بأسماء تعكس أحد وظائفها الرئيسية مثل قصبة "الرهوة" أي الحدود بين أراضي القبائل، كما يسمونها بأسماء جميلة مثل: "قصبة بهجة".

ومازال أصحاب الكثير من القصبات في قرية آل الخلف يستخدمونها في أغراض حفظ مؤنهم ومتاعهم. وللقصبات نوافذ صغيرة للإضاءة والتهوية، تملأ بالأعشاب الشائكة حتى لا تمر منها الطيور أو الحيوانات الصغيرة. وتحفظ الحبوب المخزونة في القصبة عدة أشهر، إما بنشرها داخل غرف الخزن، أو بوضعها في أكياس تصنع من القش.

وقد يملك القصبة شخص أو أسرة، وقد تكون ملكا لأهل القرية، وفي هذه الحالة تستعمل كل جماعة طابقا من البناء. وما زالت هذه القصبات تثير الإعجاب والتقدير، وتعكس على مر الزمان تاريخ قبائل مرتفعات السروات ومآثر أهلها.

٤ - المساجد

كان المسجد في المدينة الإسلامية منذ البداية هو المجمع الثقافي، والمنبر التعليمي، كما هو المركز الديني [٢٠]. وفي منطقة عسير كانت عمارة المساجد مسؤولية أهل القرية أو الحي [٢١-٢٢]. ولذا نجد أن المسجد الرئيسي في قرية آل الخلف يحتل في المدينة مكانا مرموقا معنويا وماديا. ففي قرية آل الخلف تم اختيار المساجد في مواقع تؤدي إليها الطرق المختلفة في القرية، وتكون لها نقط استدلال يمكن رؤيتها من مسافات بعيدة [٢٣].

وكان لمسجد القرية الجامع (الشمالي) مكانته الدينية والاجتماعية، تؤدى فيه الصلوات خمس مرات في اليوم والليلة، ويتلقى فيه الأطفال دروس القرآن الكريم ومبادىء القراءة والكتابة، وتعلن فيه الأخبار المهمة والدعوات الجماعية لاحتفالات الزواج والختان (الشكل رقم ١٥). وقد خصص سكان قرية آل الخلف ساحة المشرف جنوب المسجد الجامع تحت شجرة التالقة كمكان لعقد اجتماعات لأهل القرية (الشكل رقم ١٦). وبعد إقرار سوق آل الخلف منذ حوالي مائه وخمسين سنة استدعى الأمر بناء مسجد للصلاة اليومية فيه، ثم هدم في عام ١٤٠٣هـ، وتم بناؤه بالخرسانة المسلحة وتحول إلى مسجد جامع للقرية (الشكل رقم ١٧).

تشابه المساجد في قرية آل الخلف نظائرها في المدينة الإسلامية التقليدية، إذ تقام على مسافة سير معقولة على الأقدام مقابل سهولة الوصول والاستدلال.

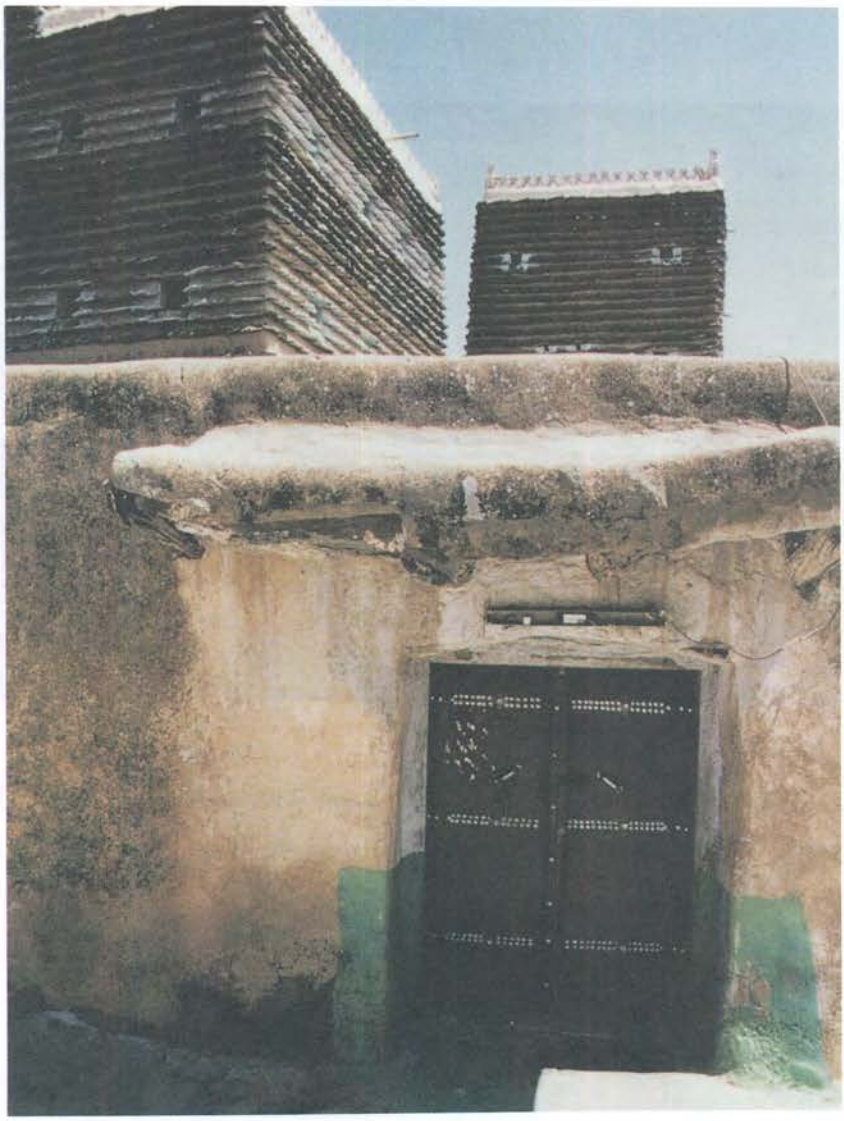

الشكل رقم (١٥). صورة بناء توضح تميز بناء المسجد الجامع (القديم) لقرية آل الخلف وسط المناطق السكنية المكتظة داخل القرية إذ بني من الحجر وليس بالقضاض (مادة شبيهة بالأسمنت).

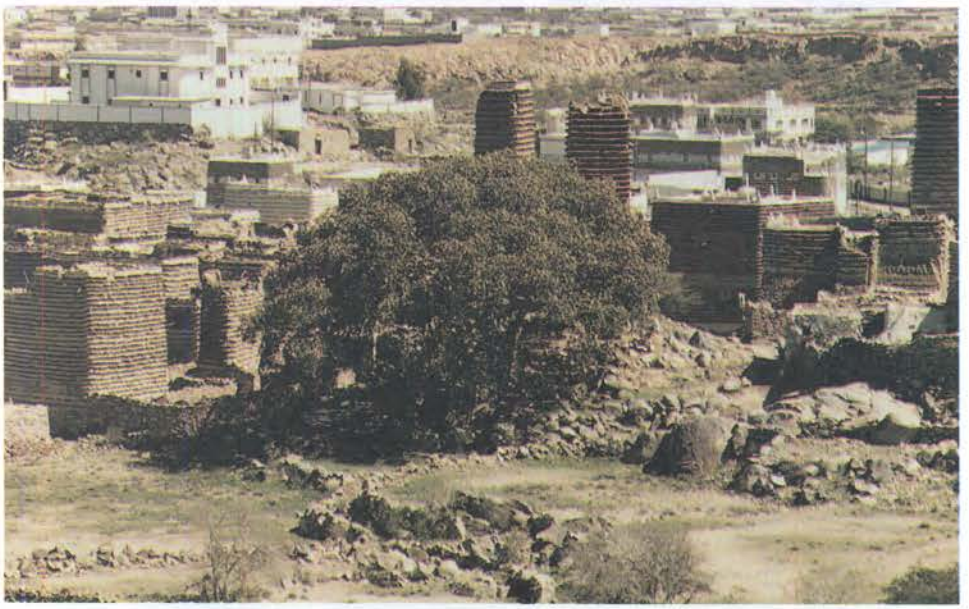

الشكل رقم (١٦). صورة لشجرة التالفة العملاقة جنوب المسجد الجامع، يشكل ظلالها "مجلس قرية آل الخلف" وتتماثل عروقها مع شرايين الإنسان القاطن في القرية.

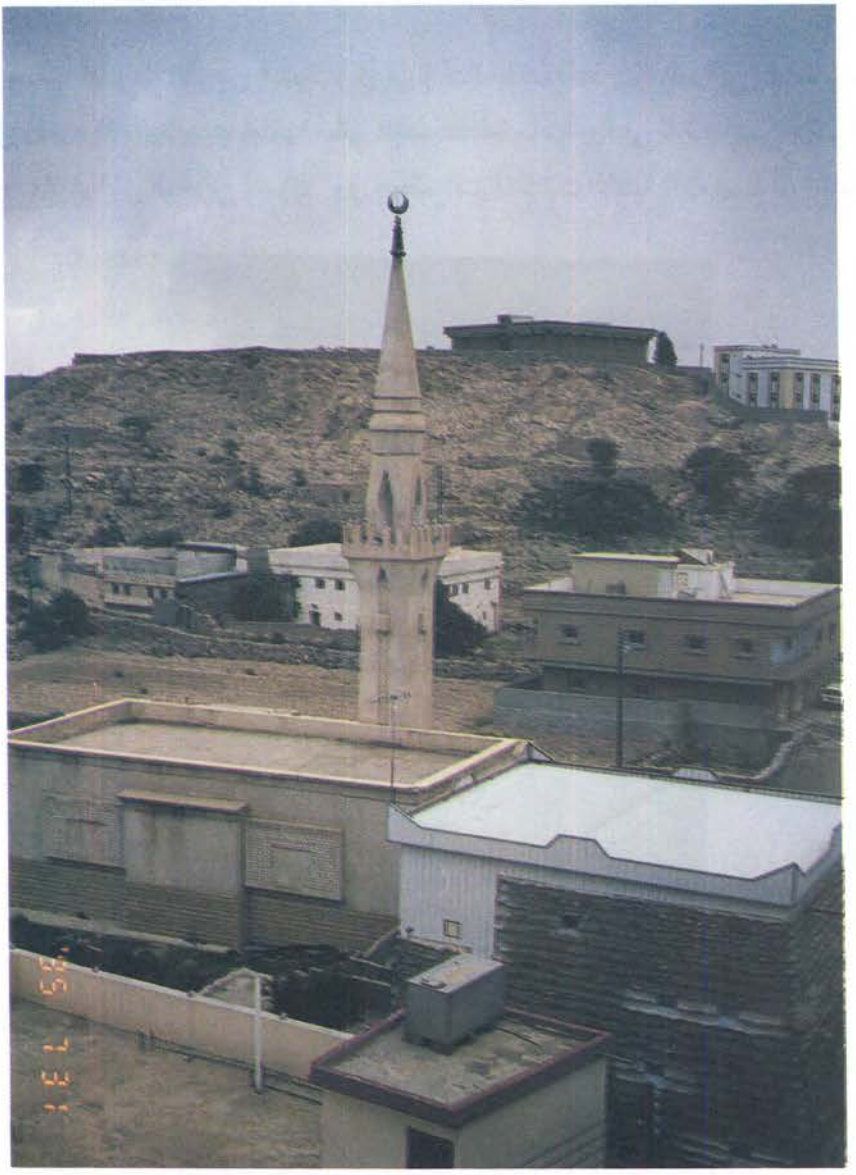

الشكل رقم (١٧). منظر للمسجد الجامع (الجديد) بقرية آل الخلف والتي تم بناؤه من الخرسانة المسلحة في عام ١٤٠٣هـ على موقع مسجد سوق القرية.

٥ – الأحياء السكنية

بسبب محدودية الأرض السكنية في قرية آل الخلف اتخذ بناء المساكن اتجاها رأسيا (الشكل رقم ١٨)، وشيدت بجانبها مباني القصبات الجماعية والتي كانت تبنى لأغراض دفاعية، ولأغراض التخزين للمؤن. وفي معظم المنازل كانت الأفنية (الأمامية أو الخلفية)

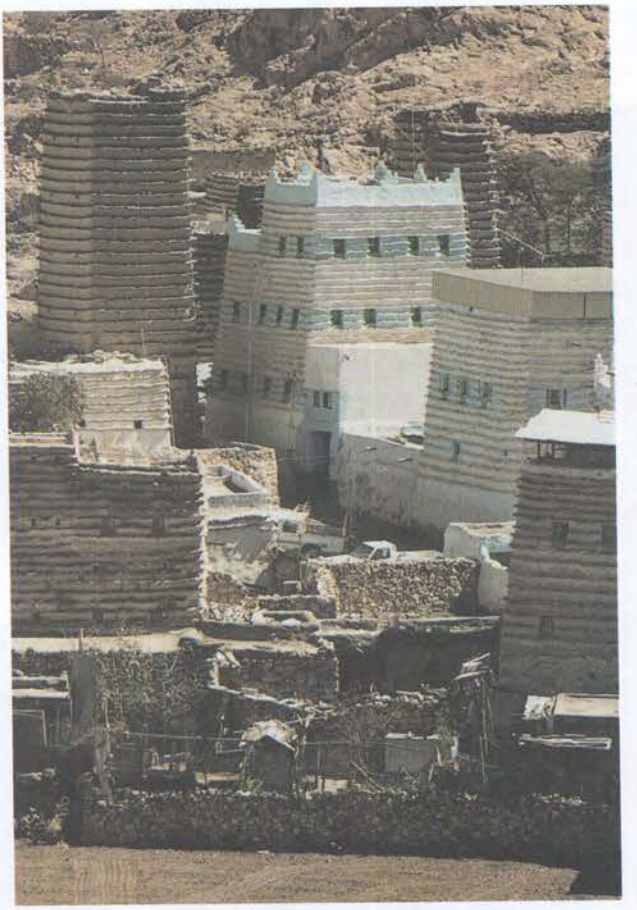

الشكل رقم (١٨). صورة توضح طراز بناء المساكن في قرية آل الخلف التقليدية ومدى اتزان ارتفاعها مع القصبات.

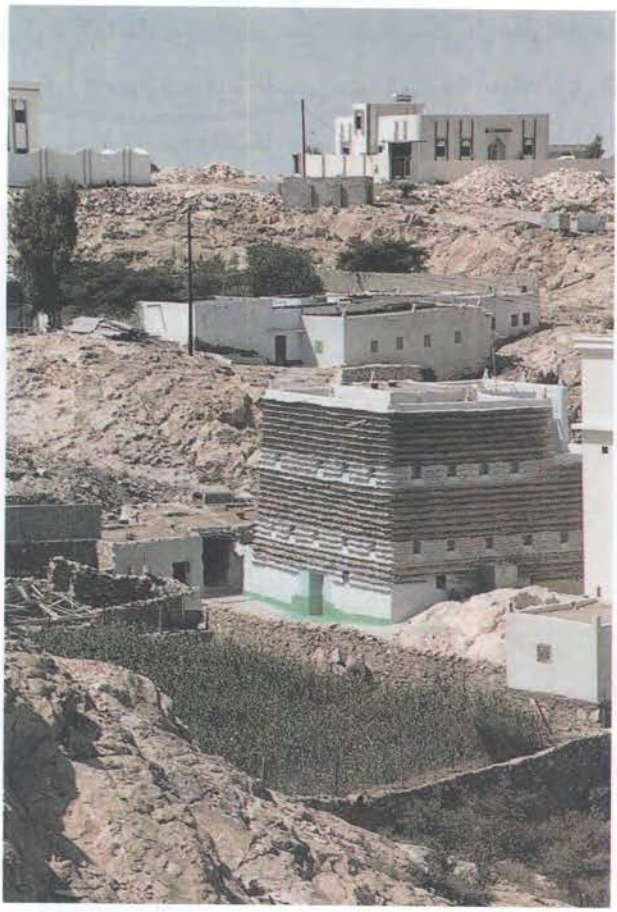

الشكل رقم (١٩). صورة توضح التصميم الخارجي للمساكن خارج البيئة المبنية لقرية آل الخلف التقليدية.

صغيرة، وهناك منازل لا فناء لها، واقتصر منزل الصحن الداخلي على منزل واحد في القرية وتفتح بوابات الكثير من المساكن مباشرة على الشارع، وفي بعضها على الفناء ثم يدلف إلى الشارع. وفي القطاع الجنوبي الشرقي يمكن مشاهدة تجمعات للمنازل من منزلين إلى أربعة منازل مع استدارة خفيفة [٢٤]. كذلك يمكن مشاهدة بعض المباني المنعزلة خاصة في مناطق التنمية الجديدة شرق وشمال وجنوب القرية (الشكل رقم ١٩).

ويوجد في قرية آل الخلف إثنا عشر حيًّا سكنيا يسكن آل مطر الجزء الشمالي منها في خمسة أحياء، ويسكن آل مبارك الجزء الجنوبي منها في سبعة أحياء، وفي الغالب يسكن كل حي جماعة تجمعهم قرابة واحدة (الشكل رقم ٢٠).

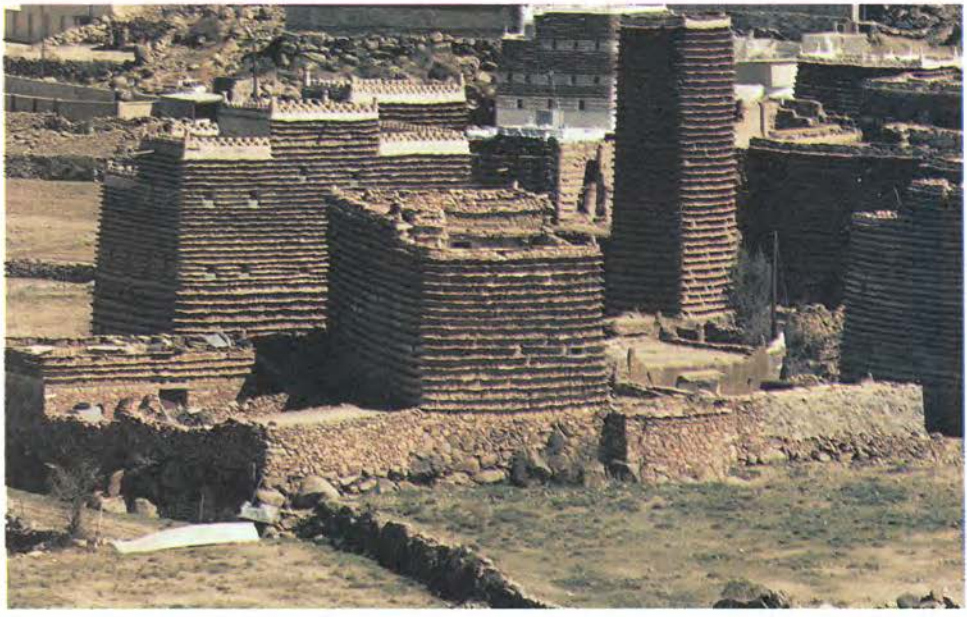

الشكل رقم (٢٠). يتميز كل حي سكني بقرية آل الخلف التقليدية بالانتماء لساكنيه حيث القصبة الخاصة به والطرقات المحيطة به.

قد أتاح الموقع فرصة لأصحاب المساكن لتصميم أسطح منازلهم وتوجيهها نحو الشمال والشرق للإفادة من هبوب النسمات العليلة الباردة في ليالي الصيف.

وتتفاوت المسافات بين المباني في قرية آل الخلف من حي لآخر، ويبدو ذلك نتيجة لعملية تكثيف تدريجي، إذ يلاحظ التقارب العمراني في التنميات الأولى في الأحياء الشمالية، ثم يأخذ العمران في التباعد في الأحياء الجنوبية متفاوتا ما بين٣-١٠أمتار بين المباني في التوسعات الجديدة [٢٤].

ويعزو الكثير ممن تمت مقابلتهم متانة وروح الاتصال والتآلف الاجتماعي بين سكان الأحياء الشمالية عنها في الأحياء الجنوبية نتيجة لتكاثف وتضام المباني في أحيائهم وتناثرها في الأحياء الأخرى.

وقد بدأ النمو السكني الأول في المواقع الموجودة شرق منزل خلف بن يعلى وشماله، وكانت الحارات السكنية تتحدد بمجموعة من العناصر كأسوار أحواش المنازل والمداخل والبوابات والأماكن المفتوحة والواجهات الملونة (الأشكال من٢١ إلى ٢٣).

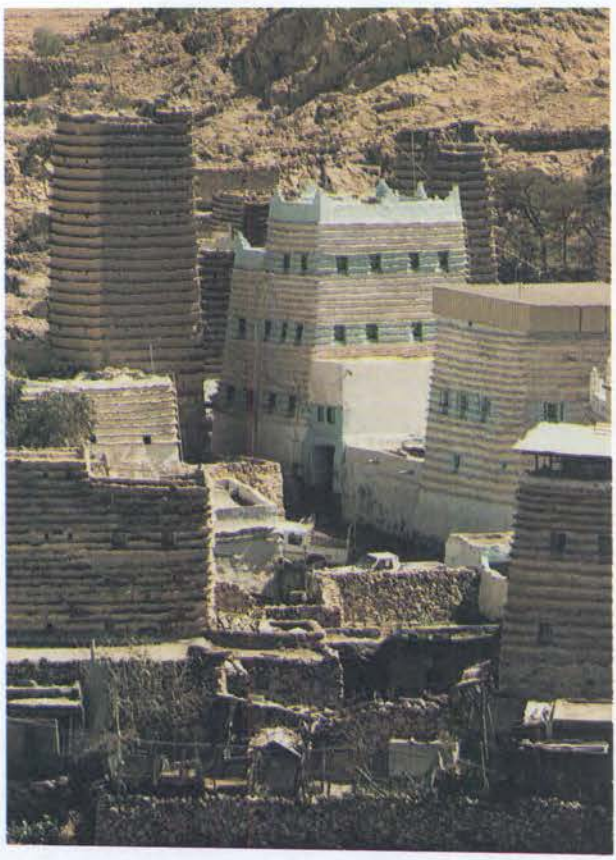

الشكل رقم (٢١). تتميز مباني قرية آل الخلف بتصميمات خارجية فريدة حيث استخدام ألوان الأبيض والأزرق والأخضر في تزيين الواجهات والنوافذ والأبواب.

وقد كانت أشكال المساكن تتميز باحتواء تجمع السكان كموروث تقليدي وتكوّن بمجموعها نسقا اجتماعيا مميزا.

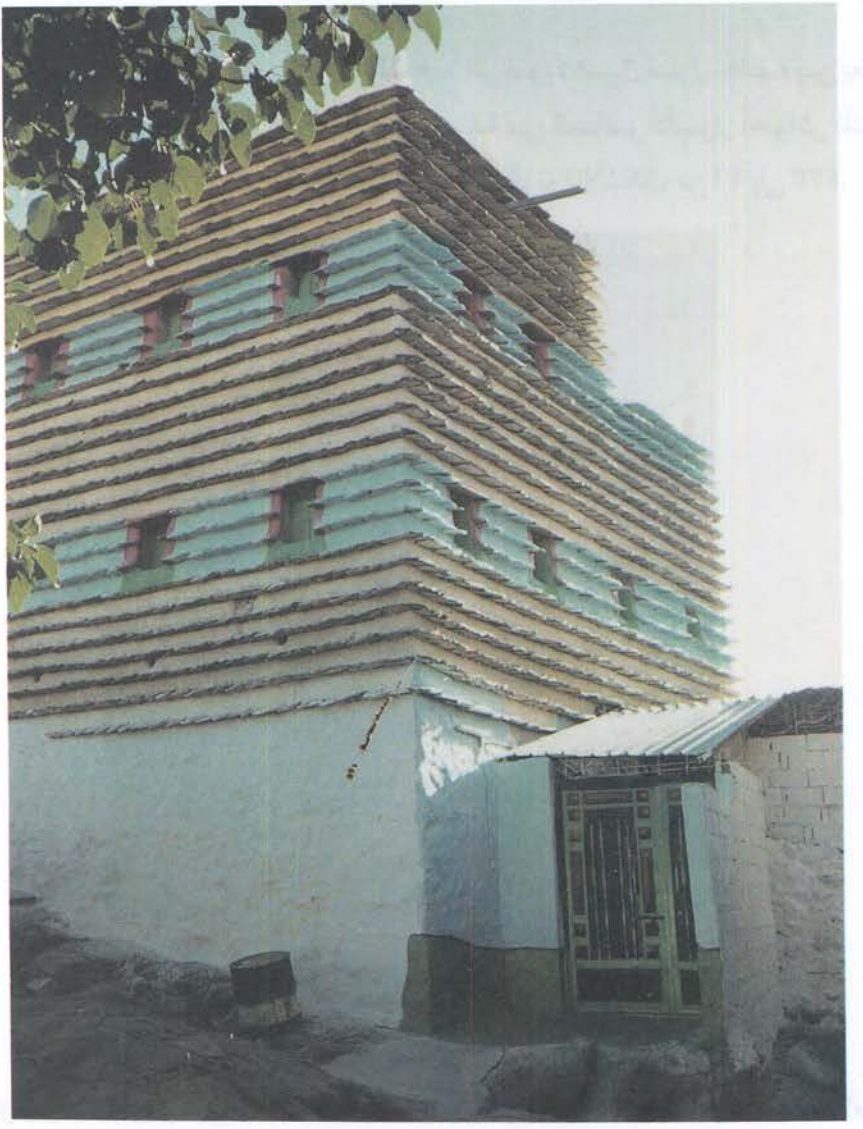

الشكل رقم (٢٢). صورة لأحد أبواب المباني السكنية وقد زينتها الألوان والنقوش المحفورة.

كذلك تميزت مواقع الأحياء السكنية الجديدة بالحفاظ على الأراضي الزراعية القيمة غرب القرية وشمالها وشرقها. فقد أخذ العمران يتجه ناحية الجنوب والغرب وخاصة على طوري الخيالة ونطوان (الشكل رقم ٢٤).

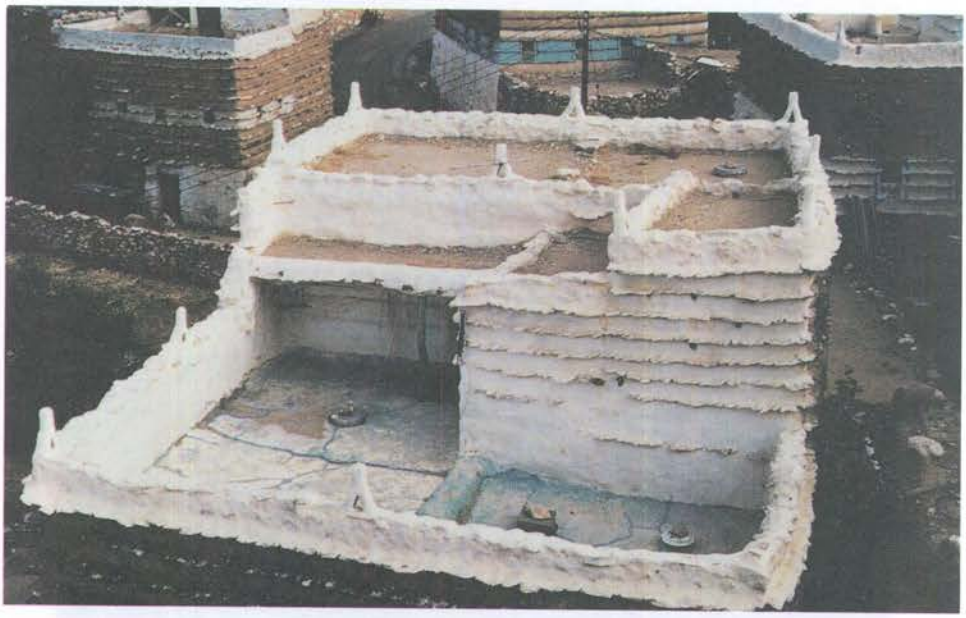

الشكل رقم (٢٣). صورة للشماسي (سطح المترل) في احد المنازل التقليدية.

الشكل رقم (٢٤). أحد المنازل الحديثة المبنية من الخرسانة المسلحة على طور نطوان جنوب القرية.

لقد أدى الاستقرار السياسي في المنطقة في منعطف منتصف القرن الهجري الماضي إلى نشوء نسيج قروي يخلو من التقارب العمراني وأقل كثافة وارتفاعا عن المساكن القديمة في الجزء الشمالي الشرقي من القرية (الأشكال من٢٥ إلى٢٧).

الشكل رقم (٢٥). أخذت غالبية شماسيات المساكن الحديثة في قرية آل الخلف طابعا جديدا يختلف عن طابع العمارة التقليدية، ومثال ذلك المنزل التي توضحه الصورة وقد غطيت الشماسي بسقف معدني.

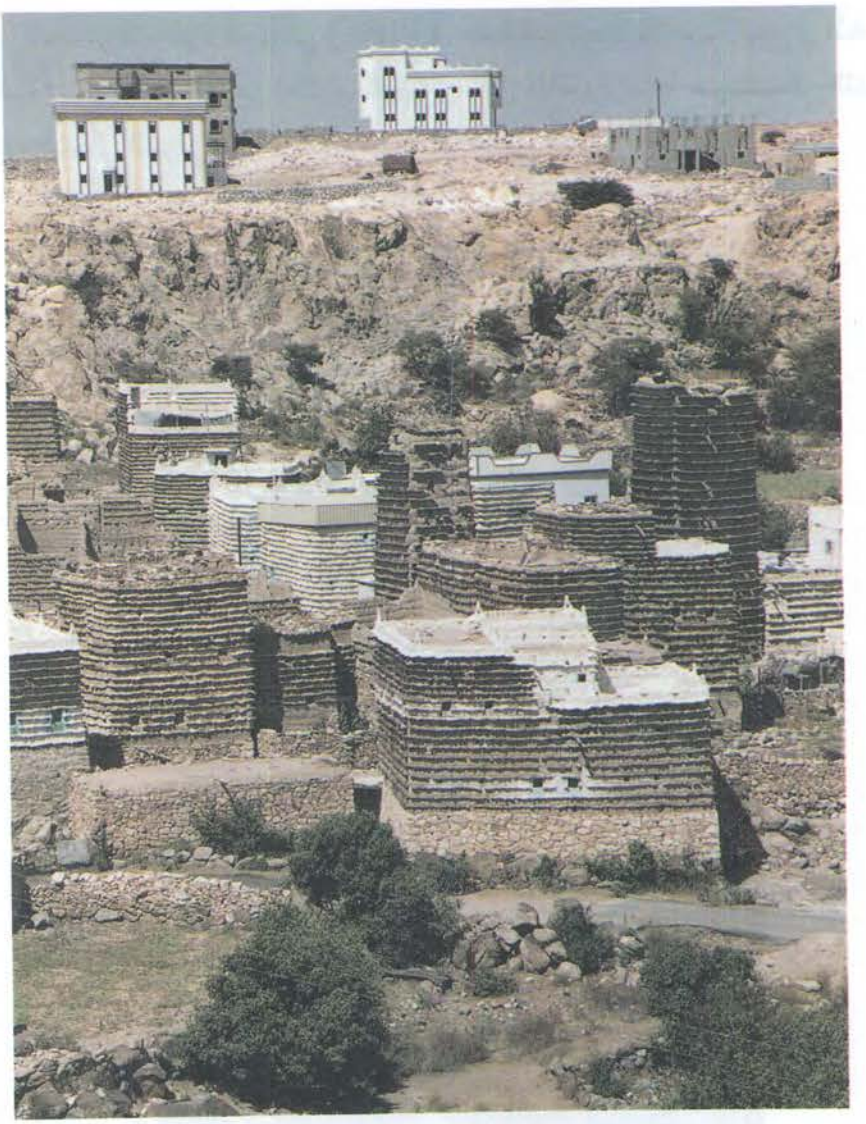

الشكل رقم (٢٦). تتميز مواقع المنازل المبنية على الأطوار المحيطة بقرية آل الخلف (طور الخيالة بالغرب وطور نطوان بالجنوب) بمواقع فريدة إذ تطل على القرية والمزارع والقصبات المنتشرة على مـــد البصر.

الشكل رقم (٢٧). محاولة لربط الشكل الظاهري للمسكن بالتراث المحلي لمنطقة عسير، نراهـــا واضحـــة في استخدام عراميس الأسمنت وذلك محاكاة للرقف والألوان المحلية.

١ – إنشاء وتصميم المساكن

امتاز السكان الأوائل في قرية آل الخلف بالكفاءة والقدرة علـى تذليـل العقبـات الطبيعية وتحويلها إلى مقومات، فبنوا وشيدوا مساكنهم لتفي بأغراضهم وأمنهم علـى أرض ليست غريبة عنهم.

تتم عملية البناء بمنطقة عسير بجهود أهل القرية الذاتية، وقد يستعينون في بعض الأحيان ببعض القرى المجاورة لهم، وذلك إما لجلب الأعمدة والتي تسمى سطاع أو مرزح أو الجسور الخشبية الكبيرة التي تسمى "المعادل"، والتي يبلغ طولها في بعض الأحيان أكثر من ستة أمتار، ومحيط دائرتها قرابة المتر. وكذلك لجلب الأخشاب الأصغر حجما من الجسور السابق ذكرها، والتي يسمونها "السواري". وهذه الأخشاب دائرية الشكل، أيضا،

ويبلغ متوسط طولها من "ثلاثة إلى أربعة أمتار" وظيفتها أن ترص في اتجاه معاكس مع (المعادل) لتحمل فوقها رصات من قصب اليراع المعاكس لها في الاتجاه، وذلك للتمهيد لفرش شيء من الأبسطة "الخصف" أو شيء من النبات ذي السماكة الصغيرة، مثل (الحلفاء) وهو نبات ينمو بكثرة في أودية منطقة عسير، وأهميته لضمان عدم تسرب التربة المعجونة التي توضع فوقها، وتسمى "الودفة"، وهي المرحلة الأخيرة لعملية السقف [٢٥]. وغالبا ما تكون جميع الأخشاب المستخدمة في البناء من أخشاب (العرعر). وهناك بعض أنواع الأخشاب الأخرى مثل الطلح والعتم والأثل، وتستعمل غالبا في النواحي الشرقية من المنطقة. تتراوح المباني السكنية ما بين دورين إلى خمسة أدوار، فالمباني العالية غالبا ما يصمم الدور الأرضي فيها كزريبة للحيوانات. والدور الأول كمخازن للأدوات الزراعية والحبوب. والدور الثالث كاستقبال للضيوف. والرابع غرف النوم. أما الخامس فغالبا ما يقسم إلى قسمين، القسم المسقوف، والمفتوح، فالمسقوف يخصص للميفا (المطبخ)، والآخر عبارة عن فناء علوي يسمى المشراح أو الشماسي. كان البناء يتم بإنشاء جدران حاملة مداميك مستمرة من الحجر بارتفاع يقارب المترين، تعلوها مداميك عبارة عن طبقات من الطين (الخلب) المعجون والمخلوط مع التبن بعرض وارتفاع حوالي ٥٠سم، وبين كل مدماك طين وآخر يتم وضع حجارة الرقف أو النطف المائلة كموانع ومسيلات لمياه المطر، وكابح لإشعاع الشمس بالصيف [٢٥]. والرقف عبارة عن شرائح مربعة تقريبا تتراوح سماكتها ما بين ٢-٤سم، وتبرز حوالي ٢٥سم. يؤدى الجدار الحجري في الدور الأرضي دورا مهما في درء مخاطر السطو والانجراف جراء مياه الأمطار السطحية إذ يصعب اختراق الجدران الحجرية.

تتعدد الألوان في المبنى بتعدد المواد الإنشائية المستخدمة، فالطين بني اللون، وحجارة الرقف سوداء، والحجارة القاعدية ذات لون بني فاتح وأبيض، إضافة إلى مسحة ألوان على المدماكين المتزامنين مع النوافذ الخشبية التي تحاط بألوان زاهية مثلثة الشكل، إذ تصمم النوافذ غالبا لتأخذ مدماكا أو مدماكين في الارتفاع (الشكل رقم ٢٨).

الشكل رقم (٢٨). صورة توضح الطريقة التقليدية لتصميم ارتفاعات قياسية للنوافذ إذ يسمح ارتفاع النافذة بمقدار مدماك أو مدماكين.

وتقتصر الفتحات الخارجية على الأبواب في الدور الأرضي وعلى مستوى الشارع، والنوافذ المربعة ذات الضلفتين في الأدوار العليا. وبالنسبة لتقنية البناء فإنه يمكن تعريفها على أنها ذلك الشكل من النشاط الحضاري الذي يكرّس لإنتاج وتطوير وتحويل أساليب البناء وتفصيلاته إلى أشكال عمرانية، إذ قام الإنسان ببديهته بإيجاد الأنظمة الإجرائية الضرورية والقواعد التنفيذية.

وفي المجتمعات التقليدية كان للبيئة الطبيعية دائما تأثيرها من حيث ضرورة تطبيق تقنية بعينها دون أخرى، ضمانا لنجاح البناء واستمراريته.

في البيئات التي يتوافر فيها الطين والحجر، وتهطل الأمطار فيها بصفة دورية تتم المفاضلة والمساومة ما بين تقنية البناء بالطين أو الحجر أو بهما معا. فعندما استخدم الإنسان الطين في تشييد مسكنه تميز بسهولة التعامل معه كمادة مرنة سهلة التشكيل. وعندما لم يجد السكان سوى الطين يستخدمونه في تشييد مساكنهم، تفننوا في استخدامه لحل جميع المشكلات البيئية من حرارة، وبروده، وأمطار، ورياح. وعلى الرغم من أن الحجر كان متوافرا في بيئة آل الخلف فقد كانت العمالة محدودة، وكذا المعدات اللازمة لقطع الحجر مما حال دون تشييد المساكن أو المباني العامة بكاملها من الحجر. ومن خصائص بيئة قرية آل الخلف كثافة الأمطار، وضعف تماسك التربة الطينية، نظرا لوجود نسبة كبيرة من الحصى المتدرج فيها.لذا عمد الأهالي إلى استخدام حجارة الرقف التي يتراوح سمكها ما بين ٢-٤سم، إذ كانت توضع بارزة حوالي ٢٥سم مع ميل خفيف نحو الخارج بين مداميك الطين للحيلولة دون وصول مياه الأمطار إلى جدران الطين وتعريتها. ويعد استخدام الرقف مع الطين بهذا الشكل نسقا معماريا مميزا للعمارة التقليدية بمنطقة عسير ككل، وعلى مستوى العالم أجمع.

٦ - المدافن (المخازن الأرضية)

اختيار موقع قرية آل الخلف على تبة صخرية كان قرارا صائبا، مكن السكان من حفر مدافن أرضية للحبوب في الصخر تشبه صوامع الغلال، لكنها سفلية بالقرب من مساكنهم، وتحت سيطرتهم، وخاصة أثناء حصار القرية الناتج عن الحروب القبلية قبل استتباب الأمن على يد الملك عبدالعزيز - يرحمه الله -. وما زالت المدافن تستخدم إلى الآن لتخزين الفائض من الإنتاج الزراعي بعد خلط الحبوب برمل ناعم يسمى "النيس"،

والذي يقوم بدور ممتص للرطوبة، وتمكث الحبوب في المدافن سنوات عديدة. وحسب إفادة أهل القرية فإن التخزين الطويل للحبوب يعقمها بحيث لا يمكن الاستفادة منها كبذور.

٧ - نسق الساباط: حقوق ملكية الهواء

لم يكن لأصحاب المساكن في المستوطنات التقليدية سوى بدائل قليلة لتوسعة مساكنهم، نظرا للظروف الأمنية التي استدعت تراص واندماجية البنية العمرانية ككل، ومحدودية الفراغ في التكوين العمراني للمستوطنة. ومن تلك البدائل شراء الأرض من جار أو الامتداد الرأسي أو الأفقي عبر تجسير الممر العابر بين مبنيين أو مبنى وفضاء آخر أو بعبارة أخرى تملك حق الهواء. وما أن نشأ نسق الساباط إلا وتسابقت الأيدي المحتاجة للفراغات المسقوفة إلى تجسير الأزقة أو الممرات بين المباني بما يكفي من الطول لتوفير غرفة أو أكثر.

ويخضع نسق الساباط عادة لقواعد وشروط محدودة بشكل واضح للجميع، يقوم على تنفيذها ولاة الأمر. ففي المجتمعات المختلطة الأجناس ومن خلال توصية النظراء يقوم الحاكم أو القاضي بالسماح بالبناء، ويتولى النظراء الأمر بعد ذلك في الأمور التي يجب الأخذ بها كالاتفاق المتبادل بين الجيران لإقامة ذلك النسق، وعدم وجود ضرر من بنائها، ومتى يتخذ قرار بإزالتها والتزام المستخدم التزاما تاما بتلك الشروط إضافة إلى التكفل بصيانة الساباط وإصلاحه وإزالة ما يعرضه للأخطار.

أما في قرى مرتفعات السروات فإن شيخ القرية أو نائبه يتولى مع مجلس القرية اتخاذ القرار والسماح ببناء الساباط، وهو ما نراه في قرية آل الخلف، والتي يزيد طول بعضها على ٥٠م (الشكل رقم ٢٩).

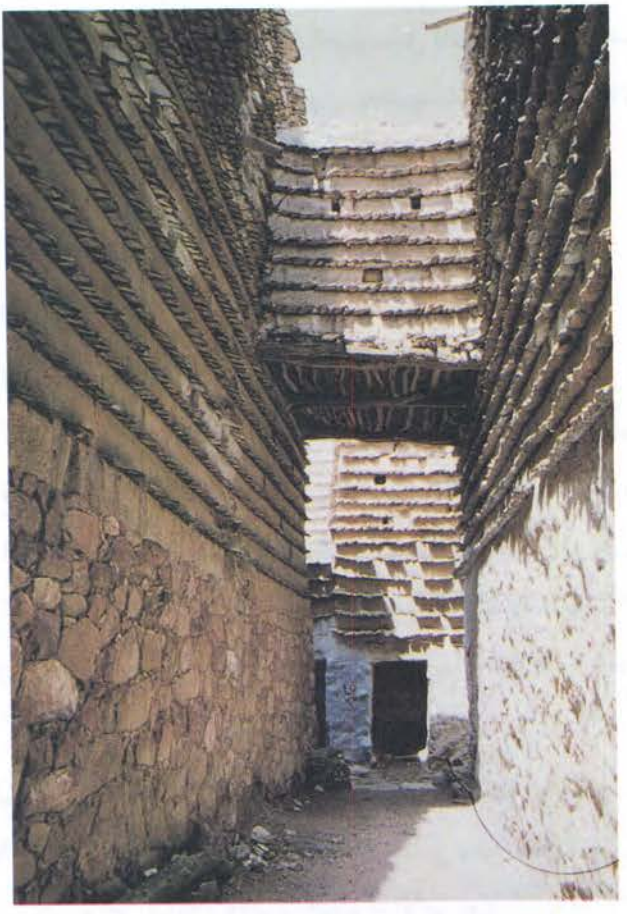

الشكل رقم (٢٩). صورة توضح الساباط (الطريق المسقوف) بأحد الأحياء السكنية.

لقد جاء نشوء هذا التكوين للنسيج العمراني كنتاج لجهد إنساني وتقاليد مثابرة على بقائها استمدت شرعيتها من تعاليم الإسلام وأخلاقياته السامية. فإذا ما وعى المرء ذلك المحيط الاجتماعي والثقافي بمعتقداته وأفكاره وقيمه وأعرافه وسلوكياته التي أدت لنشوء تلك البيئة التقليدية مكنّه ذلك من فهم الأسباب وإدراكها واستنباطها واستلهامها وتفسيرها وتحليلها والدواعي وراء نشأة تلك البيئة العمرانية التقليدية ، واتخاذها للشكل والتكوين الذي جاءت عليه.

النسيج العمراني: النمو والتطور

بعد تأسيس المملكة العربية السعودية في عام١٣٥٣هـ الموافق ١٩٣٢م، انحسر التفكير في التخطيط والتصميم الدفاعي للمستوطنات والمباني ضد غارات الأعراب وغزوات القبائل المجاورة المناوئة، وأخذ يتضاءل حتى تلاشى كلية. وغدت مستوطنة آل الخلف أسوة بغيرها في جميع مناطق المملكة تشهد بناء المساكن المتجاورة والمتباعدة. لذا يمكن اعتبار أن البيئة العمرانية التقليدية للمدينة الإسلامية جاءت نابعة مباشرةً من احتياجات سكانها وملبية لأمانيهم وطموحاتهم، كما فسرها وجسدها ماديا مهرة البنائين وصناع القرار المحليين.

يحمل النمط العمراني لقرية آل الخلف في ثناياه البحث عن شكل عمراني تتوافر فيه إمكانات الحياة والقدرة على الاستمرار والنماء والتطور، فكان للقرية قوتها السياسية ممثلة في القصبات، وكان لها نشاطاتها التجارية ممثلة في السوق الأسبوعي، وكان لها نشاطها الديني ممثلا في المساجد التي تؤدى فيها الصلوات، وتعقد فيها حلقات الدرس. وكان لها نشاطها الاجتماعي ممثلا في الساحات العامة (البسطة) التي تؤدى فيها العرضات (الرقص والغناء الحماسي)، ويستقبل فيها ضيوف القرية، ويجد فيها الغريب المأوى والتعريف بنفسه لسكان القرية. فالثقافة الحضارية للقرية ماثلة في مساكنها وأنظمتها الاجتماعية والاقتصادية والسياسية.

غالبا ما يتم تقويم مدى ارتباط الناس بالأرض والطبيعة المحيطة من خلال نتائج المسح البصري والميداني لمستوطناتهم [٢٦]. من المثير حقا أن عددا من القضايا المتعلقة باستعمالات الأراضي في الوقت الحاضر والماضي تهتم أولا بالنواحي الوظيفية والجمالية [٢٧]. وصحيح أن الجمال الطبيعي تشوهه غالبا تنميات عفوية لا مسؤولة، لكن هذا لا يعني أن يكون الاهتمام بالتكوين الجمالي الطبيعي

دائما، أو بالضرورة بناءً. وقد يحدث أن يرغب السكان وأن يحافظوا على طبيعة المظهر العام المحلي، ولهذا لم تكن هناك مفاجأة في موقف سكان قرية آل الخلف من إقامة عدد من منشآت الآبار إضافة إلى القصبات الدائرية التقليدية التي قد نجد فيها تكوينا بصريا يعزز جماليات القرية، وقد يرى أن هناك الكثير ممن يعارض إدخال أية تغييرات على التكوين البصري للقرية سوى هذين النوعين من المنشآت الوظيفية والجمالية الرمزية.

ففي الآونة الأخيرة طرأت تغيرات ملحوظة على احتياجات الفرد في المملكة العربية السعودية الحديثة، شملت مسكنه وأثاثه وأدواته، وقد اتسم هذا التغيير في الحياة الاجتماعية للمجتمع السعودي بانحسار المجتمع القبلي كنسق ضابط للعلاقات بين أطراف القبيلة والقبائل الأخرى وتحوله إلى مجتمع الأسرة الموسعة (الممتدة) في محيط منزل واحد، ثم المجتمع الأبوي المنظم بسلطة الأب وفق الموروث الاجتماعي [٢٨].

لقد استخدم سكان قرية آل الخلف اللون والنمط المعماري، وتفننوا فيهما عند تصميم المساكن الخاصة بهم وإنشائها كوسيلة تعبيرية عن اعتزازهم وشعورهم بالانتماء لقريتهم، ورغبتهم في إضفاء لمسة شخصية، ووضوح وتجميل وتمييز معماري لمحيطهم السكني والديني.

تعيش قرية آل الخلف حاليا مرحلة انتقالية، تشهد تشييدا وتوسعا عمرانيا في مواقع مختلفة حول الجزء القديم من القرية مع نشوء فوارق ملحوظة بين العمران الحديث والعمران التقليدي من حيث استخدام أنواع جديدة من المباني والمواد، مثل الأسمنت والصفيح عوضا عن المداميك الطينية وأحجار الرقف (الأشكال أرقام٣٠، ٣١، ٣٢، ٣٣).

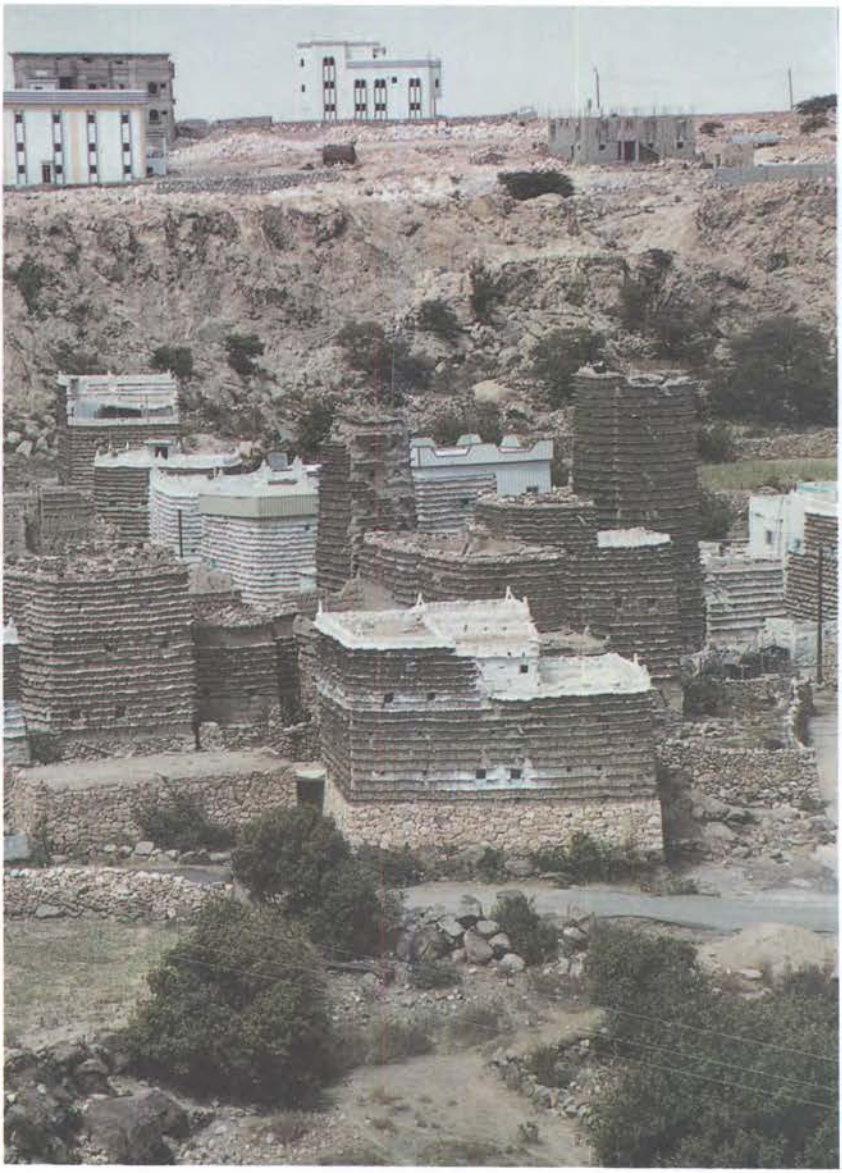

الشكل رقم (٣٠). صورة توضح بدايات التغير في نسيج قرية آل الخلف إذ تمت بعض الإضافـــات للمبـــاني مستخدمة مواد جديدة ومتنافرة مع المواد التقليدية.

الشكل رقم (٣١).صورة توضح بعض التعديلات على بنية المسكن في قرية آل الخلف والتي تمت بإضافة إنشاء خرساني فوق المبنى التقليدي.

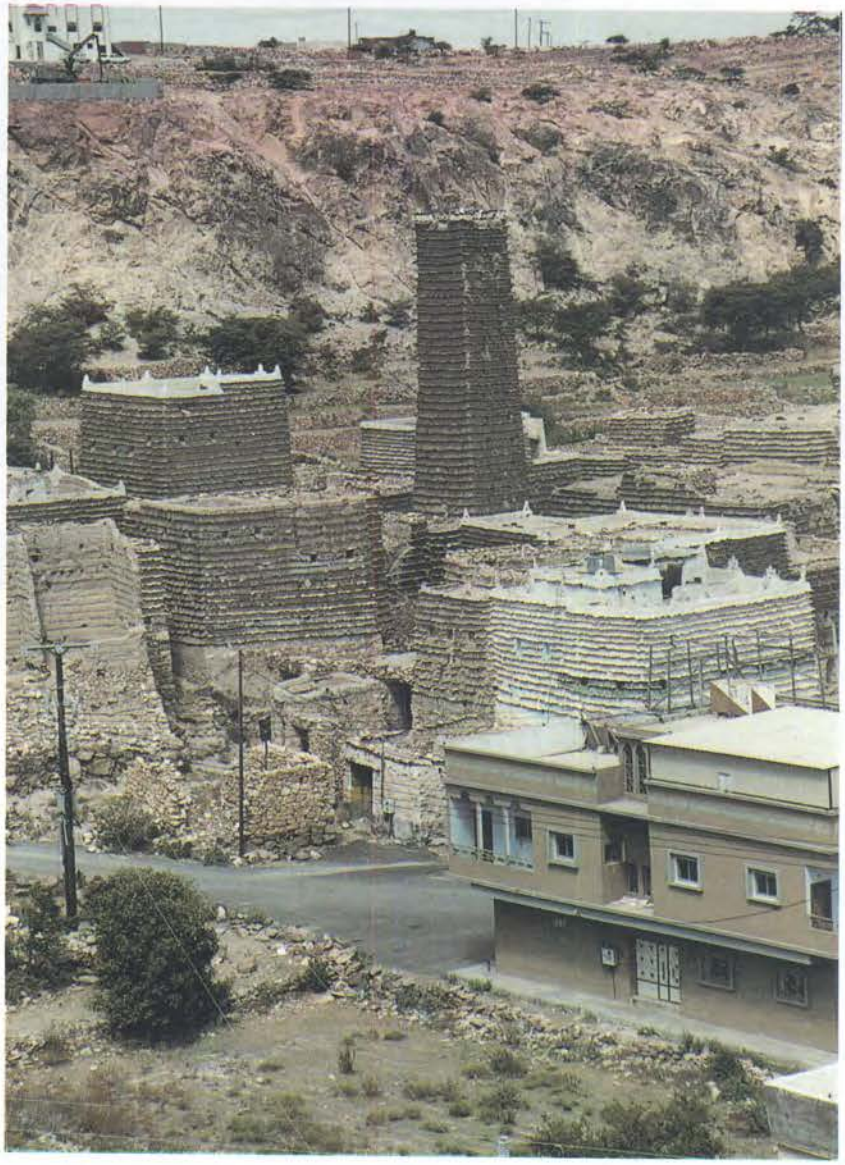

الشكل رقم (٣٢). صورة توضح استخدام مباني الشقق السكنية الحديثة و المستجدة في البيئة التقليدية لقريـــة آل الخلف.

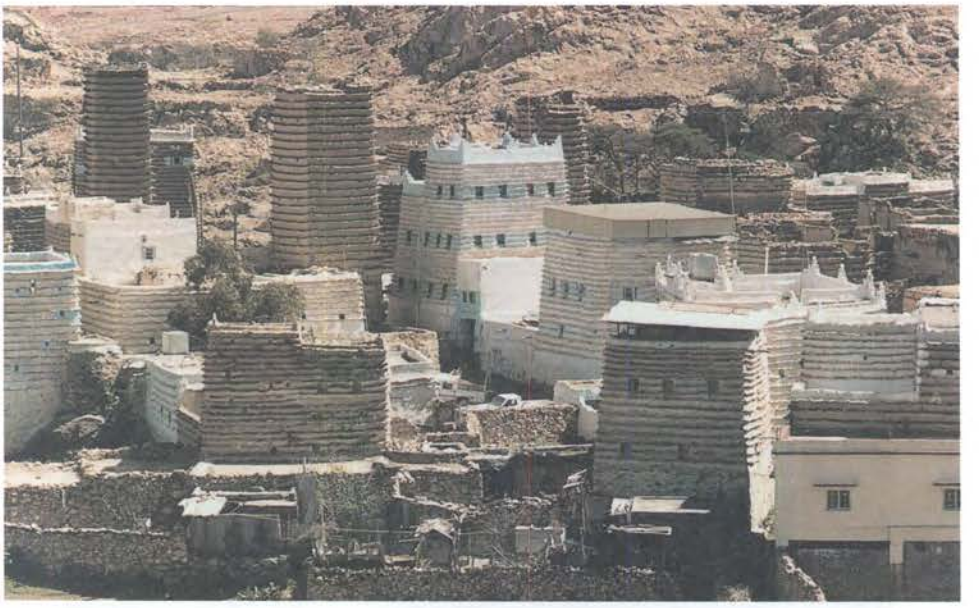

الشكل رقم (٣٣). صورة توضح تميز بنية مساكن قرية آل الخلف التقليدية والمبنية من الحجر الملون والتي كان لها الأثر في إعطاء صورة مميزة للمسكن.

لاشك أن التغييرات الاجتماعية والثقافية التي يعيشها المجتمع السعودي، والقلق من الأخطار التي قد تتعرض لها القيم التقليدية والموروث الحضاري جراء اصطدامها بالقيم والنزعات المادية الوافدة سيكون لها تأثيرها على تكوين البيئة العمرانية من حيث كيفية استخدام السكان للأراضي، واستغلال نشاط الفرد، فكلما تعددت الشرائح الاجتماعية والسياسية تعدد وتنوع استغلال وإحساس أفراد المجتمع بالفراغ وبالعمارة.

لقد نجم عن النمو الاقتصادي الحديث للمملكة العربية السعودية، حدوث تحولات اجتماعية هائلة في الحياة التقليدية للسكان المحليين.

وشهدت العقود الستة الأخيرة تغييرات رئيسية تجلت أولا في استتباب الأمن الذي تلا تأسيس المملكة. كما أن الرخاء الاقتصادي، وتحسن الخدمات الصحية، وانتشار التعليم أدى إلى نمو سكاني، وانخفاض معدلات الوفيات، وذلك خلال العقود الثلاثة الماضية. وكانت أهم التغييرات في الهياكل الاجتماعية والمعايير الثقافية والأوضاع الاقتصادية والتركيبة السكانية للمدن والقرى السعودية، إذ انعكس ذلك بدرجات متفاوتة على الهيكل والشخصية العمرانية لتلك المدن والقرى.

لقد كان لضغوط وإرهاصات الحاضر تأثير كبير في طمس الهوية الشخصية للقرى التقليدية باستثناء قلة منها استطاعت أن تحافظ على هويتها. وقرية آل الخلف لم تستطع مقاومة إرهاصات وضغوط الحاضر فباتت ضحية له، إذ هجرها شبابها إلى المدن سعيا وراء الآمال الكبيرة وضعفت زراعتها ومراعيها.

شهدت بعض مباني القرية القديمة بعض الترميمات والإنشاءات الجديدة في حين بدأت التنميةُ السكنية الحديثة في الانتشار في مزارع القرية، والتي أخذت طابع الفيلات ومباني الشقق شرق القرية وشمالها وغربها وتلتها التنمية العمرانية فوق الأطوار (الجبال) المحيطة بالقرية.

أصاب التحلل بعض المباني القديمة في حين لا يزال البعض منها صامدا، وأخذت القرية التقليدية تفقد شخصيتها وتنزوي عن الحياة اليومية، وبدأت هناك سلسلة محاولات الحفاظ الحضاري عليها، لكنها لم تتأصل في خضم التغيرا ت اللااتجاهية، ووجدت القرية ذاتها، وكذا توابعها تدور في فلك التغير الدائب والمتواصل الذي عم سائر البلاد.

لقد شجع التطور في وسائل المواصلات والاتصال مع شبكة الطرق الجديدة التي عمت المملكة على الابتعاد عن المركز القديم، وعلى استخدام مواد إنشائية، وأساليب بناء

حديثة، أخذت تظهر في المحيط المجاور للقرية كأشكال ونماذج بناء غريبة عن الأشكال الأصيلة أدت لبروز قرية "آل الخلف" جديدة.

تقويم التنمية العمرانية لقرية آل الخلف خلال مائة عام

لقد خاضت المملكة العربية السعودية تجربة فريدة في مجال التنمية العمرانية، إذ اتسعت رقعة العمران بصورة فاقت حدود التوقعات، ولقد اعُتمدت لمدن المملكة وقراها مخططات إرشادية، ومن ثم تحديدُ للنطاق العمراني، وأخيرا المخططات الهيكلية لتنظيم عملية التنمية، وإيجاد التوازن المنشود بين نمو السكان والتوسع العمراني، وتوفير مستوى جيد من المرافق والخدمات العامة.

وفي خلال المائة عام الماضية عمل على ضمان توفير الخدمات البلدية لجميع مدن المملكة وقراها بكفاءة وفعالية، والعمل على تحقيق تنمية وطنية شاملة في مجال العمارة والتخطيط، وذلك بإنجاز العديد من مشروعات التجهيزات والبنية التحتية للعديد من مدن المملكة وقراها، وتأمين السبل الكفيلة بكفاءة أدائها، وضمان سلامتها، والحفاظ عليها لخدمة المصلحة العامة.

ولقد عملت شبكات الطرق المعبدة والكهرباء والهاتف والإنارة والمياه خلال الخمسين سنة الماضية على ضمان توفير الخدمات البلدية للعديد من المدن والقرى بالمملكة بكفاءة وفاعلية.(الأشكال من ٣٤ إلى ٣٨).

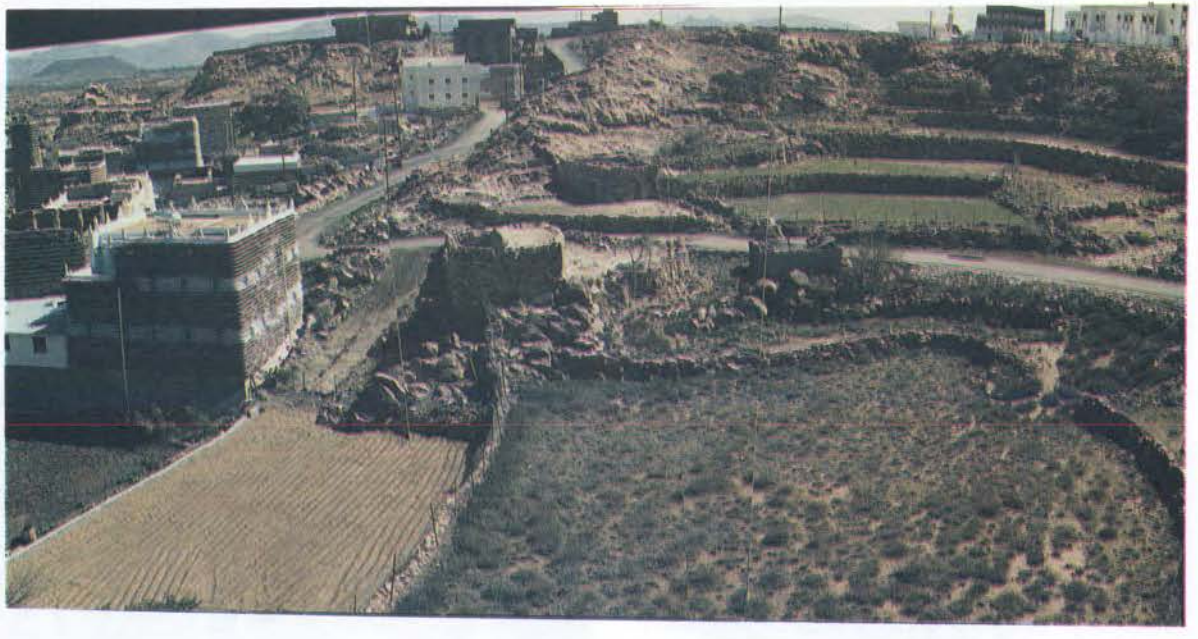

الشكل رقم (٣٤). حافظت قرية آل الخلف على بعض المظاهر التقليدية مثل الزراعة والرعي والمحافظة علـــى الغابات الطبيعية. توضح الصورة بعض حقول العثري وقد سويت وزرعت.

الشكل رقم (٣٥). توضح الصورة قطعيًا من الغنم أثناء الرعي وبعده.

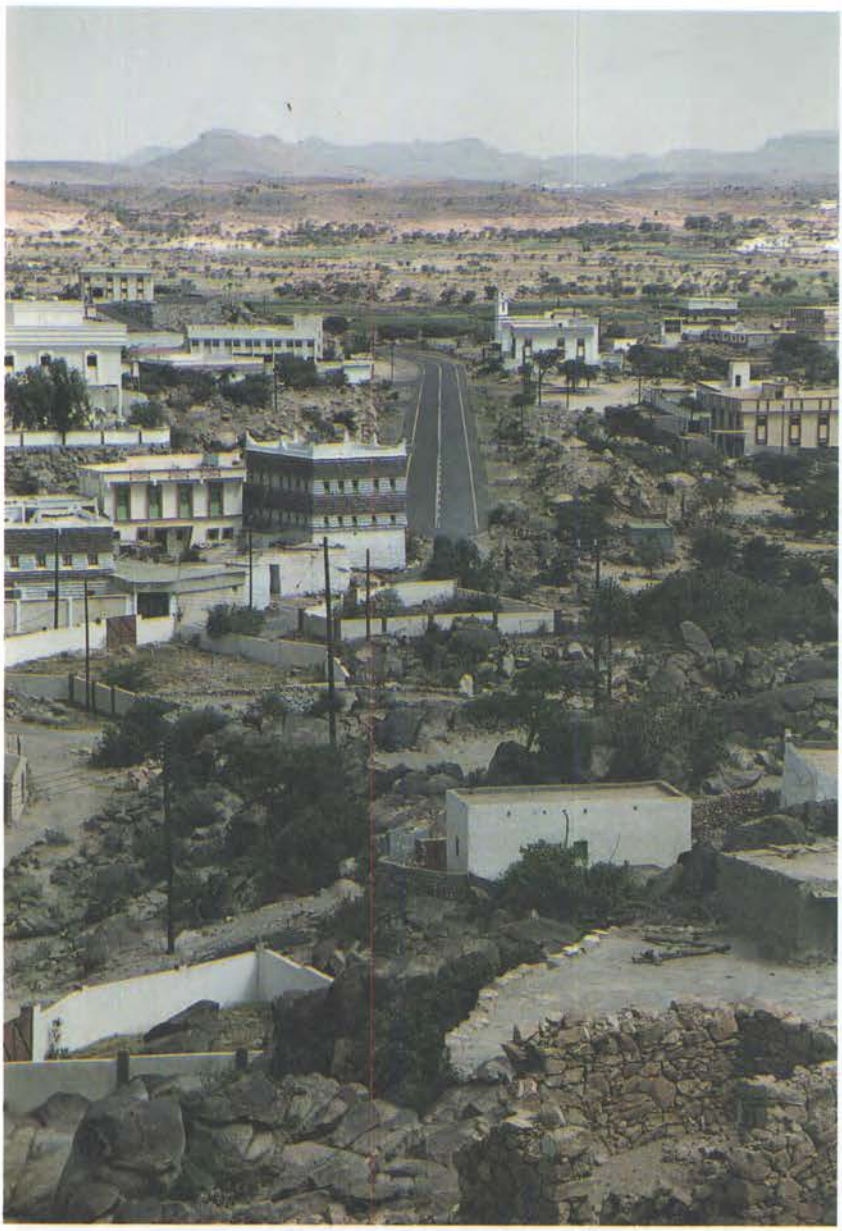

الشكل رقم (٣٦). صورة توضح الطريق المزفلت المؤدي للقرية من مدينة سراة عبيدة.

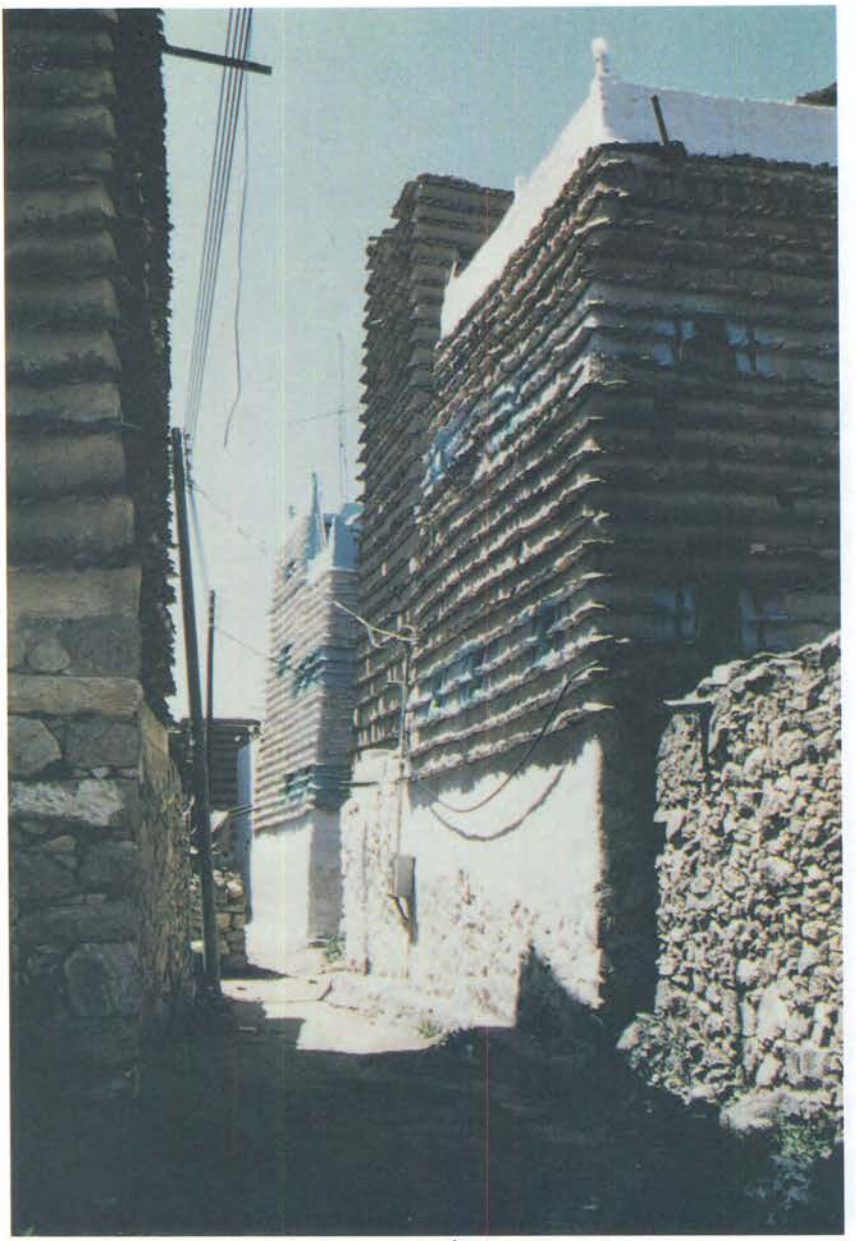

الشكل رقم (٣٧). صورة توضح تمديدات اسلاك الكهرباء داخل القرية القديمة.

الشكل رقم (٣٨). استخدام المعدات الحديثة في أعمال الحفر والإزالة والتسوية للتنميات الحديدية في المبـــاني والأراضي الزراعية.

ساهم تطور المرافق والخدمات البلدية في عسير في انتعاش السياحة، وتنمية المناطق السياحية وتطويرها والمحافظة عليها. ولقد قامت البلديات بدورها في غياب هيئة خاصة تعنى بشئون السياحة. وأدى انتشار العمران انتشارا أفقيا إلى ظهور الحاجة إلى نقاط مرجعية في البيئة العمرانية للتعرف على المكان، فكانت الميادين والساحات والأشكال الجمالية تؤدي دورها الطبيعي في تجميل البيئة العمرانية، وتحولت هذه الأشكال الجمالية إلى معالم يهتدي بها الساكن، والسائح، والزائر للوصول إلى المكان الذي يريده. وأصبحت الأشكال الجمالية مهمة لوجود أعداد كبيرة من الوافدين لحاجة البلاد إليهم في تنفيذ مشروعات التنمية والسياحة. وأصبحت هي اللغة المشتركة للتعريف بالمكان، وأصبحت هذه الأشكال بمثابة علامات مميزة يتعارف عليها وتوصف بموجبها الأماكن.

ولقد تم إنجاز العديد من الأعمال التي ساعدت على نمو المدن والقرى واتساعها، وازدهار التنمية العمرانية لها، وكان لتنمية الأراضي نصيب كبير في تحجيم الأزمة السكانية التي تصاحب أي عملية تنموية كالتي حصلت في العقود الثلاثة الماضية، وخاصة بعد تطبيق أول خطة تنمية بالمملكة في عام ١٣٩٥هـ (١٩٧٥م).

لقد شملت الخدمات البلدية في قرية "آل الخلف" جميع أوجه الحياة من كهرباء، وشبكة طرق، وتسوير للمقابر، وإنشاء للمتنزهات العامة، وخدمات التشجير، والسفلتة والأرصفة والإنارة... إلخ.

ولقد قامت بلدية سراة عبيدة التي تتبعها قرية "آل الخلف" بإعداد قواعد تنظيمية تهدف إلى ضبط التنمية وضمان وجهتها الصحيحة؛ وذلك بوضع الأسس والمعايير الفنية الموحدة التي من شأنها رفع المستوى الفني من أجل تيسير وتسهيل مهمة اعتماد المخططات السكنية وتسهيلها، وسرعة إنجاز أعمالها، وتوحيد الأسس التي يجري العمل بها، ولقد ساهمت تلك القواعد الفنية الخاصة التي تم إصدارها مساهمة كبيرة في تنظيم العمل.

كذلك لعبت البلدية دورا مهمّا في المحافظة على الأراضي العامة والخاصة، وتنظيمها ومعالجة القضايا المتعلقة بها، ولقد ساهمت المنح التي منحتها الدولة في مساعدة ذوي الدخل المحدود للحصول على أراضٍ ومن ثم على قروض للبناء من صندوق التنمية العقارية.

تقوم بلدية سراة عبيدة بدراسة قضايا طلبات حجج الاستحكام التي ترد إليها من أهالي "آل الخلف"، وإبداء الرأي حيالها، ومعالجة المنازعات على الأراضي، وتداخل الملكية، ومتابعة تنفيذها، وكذلك فحص الملكيات، والتأكد من خلوها من الشوائب والادعاءات.كما تقوم البلدية بوضع القواعد والتعليمات المتعلقة بتنفيذ أوامر المنح وتوزيع الأراضي البلدية على المستحقين، وتطوير هذه القواعد كلما دعت الحاجة، وعمل قاعدة معلومات خاصة بالمنح. وكذلك التأكد من ملكية الأراضي الحكومية غير المخططة.

الإجراءات الواجب اتباعها في تخطيط الأراضي الخاصة هي كالتالي

نظرا لغياب توثيق الملكيات الخاصة في الفترة التقليدية فقد دعى الأمر إلى عمل إجراءات تكفل التحقق من الملكية الخاصة للأرض قبل عمل التطويرات عليها والذي قد يحس القارىء من طولها.

١ - يتقدم المالك بطلب تخطيط أرضه لبلدية محافظة سراة عبيدة.

٢ - يرسل صك الملكية للجهة التي صدر منها الصك للتأكد من سريان مفعوله.

٣ - إعداد رفع مساحي للموقع ، وبعد ذلك تتم مصادقة المسئولين بالبلدية على صحته وسلامة تطبيقه.

٤ - إرفاق صورة من أساس صك الملكية مختوم عليها صورة طبق الأصل من الجهة التي أصدرت الصك.

٥ - ترسل المعاملة لإدارة الأراضي بالمديرية العامة للشئون البلدية والقروية بعسير للتأكد من ملكية الصك وسلامته.

٦ - مطابقة الرفع المساحي مع صك الملكية عن طريق إدارة المساحة بالمديرية العامة للشئون البلدية والقروية بعسير.

٧ - إعداد المخطط من قبل إدارة التخطيط بالمديرية العامة للشئون البلدية والقروية بعسير.

٨ - يرسل المخطط لوكالة الوزارة لتخطيط المدن ، (وزارة الشؤون البلدية والقروية) ، للموافقة عليه.

٩ - بعد موافقة الوزارة على المخطط يرسل للبلدية لتبتيره وتنزيله على الطبيعة.

١٠ - بعد أن يتأكد من أنه تم تنزيل وتبتير المخطط يعتمد من قبل المدير العام للشئون البلدية والقروية بعسير.

١١ - يلزم أخذ موافقة وزارة الزراعة والمياه على تحويل الأراضي المملوكة بصكوك زراعية إلى سكنية.

إشكالية تأصيل العمارة المحلية

تأسست العمارة الحديثة في بلاد غير إسلامية على مبدأ العلمنة، الذي يعنى بفصل الدين عن الدولة، والذي على ضوئه تم تأسيس المبادىء المعمارية للقرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين، والتي أكدت على "هجر الطابع المعماري ذي الاتصال التاريخي". ومن خصائص العمارة الحديثة أن الجمالية المولدة خالية من التزيينات والمفردات المعمارية التقليدية [٢٨].

فمنذ أكثر من عقدين من الزمن شهدت المملكة العربية السعودية توسعا عمرانيا كبيرا، وذلك عندما بدأت في تنفيذ خطط التنمية عام (١٣٩٥-١٩٧٥م)، فقد واكب هذا التوسع العمراني استخدام أنماط معمارية مختلفة لعمارة المباني صمم بعضها من قبل مصممين غرباء عن البيئة، ويمكن اعتبار هذه الأنماط غير متجانسة مع البيئة المحلية، مما أفقد الكثير من الأحياء الجديدة شكلها العمراني المميز.

ويجادل المعماري والمخطط البراهيم على أن انتشار العمارة الحديثة في المملكة ما هو إلا أحد ظواهر الانتقال من مجتمع ريفي إلى مجتمع حضري صناعي [٢٩].

يمثل تصميم البيت في مرتفعات جنوب غرب المملكة بيئة للجدل الذي يتجاذب حول تأصيل العمارة التقليدية بمفهومياتها الحديثة وإشكالياتها في العصر الحديث. إذ يحظى التصميم المعماري للبيت بأهميته على المستوى الشعبي منها ما تمتد جذوره إلى القديم، ومنها ما تمتد جذوره إلى الجديد.

ويمكن القول إن هناك ثلاثة اتجاهات متناقضة لتصميم البيت. الأول باسم "الأصالة" وحتمية العودة إلى العمارة التقليدية بأصولها وقيمها، ومحاولة الاستفادة منها وتطبيقها في عمارتنا الحديثة. تغلب النوازع الرومانسية على معتنقي هذا الاتجاه، فهم مشدودون إلى القديم بكل ما يحمله هذا القديم من روح التاريخ وأصالة الحضارة، فهو موروث اجتماعي كما أنه تراث حضاري نملكه، ويجب أن نحافظ عليه، ونضيف إليه للأجيال القادمة.

ويقابل هذا التوجه اتجاه آخر باسم "الحداثة" يدعو إلى التحرر من القديم، والواقعية المعمارية هنا تحتم النظرة المستقبلية واستحالة العودة إلى الماضي الذي نحترمه، ولكن نتخطاه، ويعزز هذا الاتجاه الدعوة إلى التطور في إطار المتغيرات الحادثة في العالم من حولنا، وسرعة التطور التقني على المستويات كافة، وفي المجالات الإنشائية بشكل خاص، التي قفزت قفزات سريعة في تطورها وتقديمها إلى المعماري في صورة أنماط وتقنيات حديثة لم يعرفها المعماري القديم، ولذلك يدعو هذا الاتجاه إلى أن يتحمل معماريو اليوم مسئوليتهم في تقديم وإبداع الجديد، كما قدم معماريو الأمس، دون أن يتمسكوا بما قدمه السلف.

أما الاتجاه الوسط فيعتمد على الالتزام بالثوابت الشرعية التى حددها الرسول، صلى الله عليه وآله وسلم، ويلتزم بها العلماء العاملون. يركز هذا الاتجاه على العمل على إيجاد الرابطة بين الماضي والحاضر والمستقبل في التكوين العمراني العام، وفي خصائص العمارة باستغلال المتغيرات المباحة مثل التقنيات الحديثة والأساليب المحلية لمعالجة المشكلات والنظر إلى تراثنا بالتحليل العلمي والتقويم الموضوعي. ولا نسقط هذا التراث العريق من حساباتنا في ميدان النشاط المعماري، وأن نعطيه حقه في الحياة والتطور، وبالتالي الحكم إن كان هذا التراث لا يصلح للتطور فنسقطه من حساباتنا عن وعي وإدراك، أو نتمسك به إذا كان قابلا للتطوير واستخلاص ما في هذا التراث من قيم بناءة فكريا وخلقيا واجتماعيا واقتصاديا، وهي قيم حية لا ترتبط بالماضي وحده. وبهذا نزيل الحيرة التي تسود الوسط الهندسي المعماري فيما يتعلق بهذا الميراث[٣٠]. ونتوجه للإبداع الذي يحمي مكاسبنا ويكسب عمارتنا الحديثة هويتها وانتماءها.

الأمثلة الكثيرة التى شملها البحث تمثل وجها للعمارة بآل الخلف، وقرى منطقة عسير، وتبرهن على أن العمران الإسلامي، يعرف بقيمه المطروحة، لا بالصيغة المفروضة، والجغرافية لعبت دورا كبيرا في تحديد طراز العمران في هذه المنطقة الفريدة "عسير"، وهذا يحتم ضرورة شمولية الثقافة للمهني المعماري، فالمعماري يجب لا يبقى معزولا بل يجب أن يركز عنايته على معرفة البيئة التي يتعامل معها إضافة إلى الاستفادة من العلوم الشرعية والاجتماعية والطبيعية والتكنولوجية.

فهناك المزيد من المعرفة، وعليه تحري الجديد من المتغيرات التي ستحصل ويضمنها بالتصميم، وذلك للإجابة على الأسئلة الكثيرة التي تطرحها هذه المتغيرات، في زمن الانتقال من التكنولوجيا اليدوية إلى الآلية. ولا يخفى علينا أن المقومات الملموسة للمكان لها تأثيرها الواضح في حياة الناس، وأن هناك تداخلا مستمرّا وتفاعلا غير منقطع بين الأنشطة الإنسانية والتقنية داخل الإطار المكاني الذي يحتويها.

إن الفكر الإسلامي لا يفرض صيغة واحدة في التعامل مع النمط في العمارة، فهو لايفرض صورا ونماذج دون غيرها، بل يفرض الثوابت التي تبني القيم والقواعد الدينية، التي تطلق العنان للقدرات الخلاقة، وبهذا تتنوع النماذج والصور، وتختلف التفاصيل [٣١]. إن مهام العمران لاتتحدد أو تقتصر على المهنيين فقط في مجال اختصاصهم العمراني، فعندما تقتصر ثقافة المهندس على المهنة فقط، سيكون معزولا عن المجالات الأخرى. وشأن ذلك يحصل في مشروعات التنمية ومناهج التخطيط، أيضا، إذ تكون المهمة الاقتصادية سطحية، بسبب انعزالها عن الثقافة، التي تخص الناس كما يخصها الاقتصاد، وهذا ما ينقص التكامل بين مجالات الحياة المختلفة والمترابطة.

إن الانفتاح نحو الانتقال إلى العصر الحديث بتقنياته المختلفة لا يبعدنا عن تلك القيم والقواعد بل إن توظيف معطيات الوسائل الجديدة، لتحقيق أهدافنا وتصوراتنا هو الذي سيساهم في إبداع أنماط جديدة لعمارة المساكن في هذه المنطقة المميزة. وضمن الوحدة الجغرافية تتحقق المتغيرات المحلية في المواقع السهلية والجبلية والبادية، وفي المستويات المختلفة المدنية منها والريفية حتى تظهر سمات خاصة وتفاصيل تنتمي إلى مكان وزمان معينين [٣٢].

فدراسة العمارة التقليدية بهذه المنطقة مهدت للبحث عن الخيوط المعمارية التي تربط الماضي بالحاضر لاستنباط المفردات المعمارية التي تتفاعل مع المبنى المعاصر، وليس للبحث عن الرمزية المقيدة لانطلاق الفكر المعماري، لذلك فإن التفاعل مع كل جديد في عالم البناء مطلوب طالما لا يتعارض ذلك مع تعاليم الإسلام وقيمه، وفي الوقت نفسه يتناسب مع المقومات الاقتصادية والبيئية والاجتماعية لمجتمع المسلمين المحدد بالمكان والزمان.

ولا يعني عند عرض المضمون الإسلامي في تصميم المباني إغفال جانب التشكيل الداخلي والخارجي المميز للمبنى، لذلك كان البحث عن المضمون هو أساس البحث عن الشكل، وليس العكس، كما تدعو النظرية المعمارية الغربية، ويعمل بها المعماريون الغربيون، ثم يأتي بعد ذلك البحث عن القيم الجمالية التي تؤكد القيم والتعاليم الإسلامية.

يشكل المسكن في مضمونه، أيضا، جزءا من المجتمع، يلتحم مع بنائه وعمرانه. ويتكامل مع خدماته الاجتماعية والتعليمية والثقافية والصحية، فهو جزء من كل مترابط وليس بناء منفردا أو منعزلا.

الاستنتاج

تعدى الاهتمام بالتراث المعماري حدود الدراسات والأبحاث الأكاديمية إلى الاهتمام الرسمي والشعبي، إذ يحاول المصممون المعماريون تحديد عناصر الجمال والقوة التي ما زالت ماثلة أمام أعيننا في النماذج المعمارية الكبرى التي يحويها تاريخنا الإسلامي العريق، وربطها وظيفيا وجماليا بالفن المعماري الحديث في محاولة لتطوير الحس المعماري في مدننا الإسلامية باستخدام وسائل التقنية الجديدة في ثوب معماري إسلامي جديد. وقد أخذت بعض المكاتب الهندسية بالمملكة على عاتقها هذه المهمة، وبدأت تبرز بالفعل نماذج معمارية تحوى الكثير من عناصر المتانة والجمال والخصوصية معا، مما يبشر بميلاد حركة عمرانية جديدة ذات ملامح معمارية محلية تعيد للمدينة العربية شخصيتها المميزة، التي كادت تفقدها، وهذا الاتجاه يلتزم بالثوابت ويعتمد على المتغيرات في إبراز هوية العمارة.

يمكن للمعماري أثناء التجوال في قرية "آل الخلف" التقليدية أن يتبين وحدة المباني واتساقها واكتمالها مع بعضها البعض في وحدة واحدة.

إن دراسة المباني السكنية هنا تتعدى تفسيرات المظهر والشكل والنواحي الهندسية لتلقي الضوء على عمليات ومبادىء وقواعد تشكيل التوزيع العمراني لمساكن ومباني قرية "آل الخلف" التقليدية والعلاقات بين حياة المجتمع وتركيبته وظروفه السياسية والاقتصادية والمناخية.

البنية العامة للقرية وأشكال البناء فيها والنسق العمراني للمساكن تلتقي كلها في انسجام تام يعكس الخصائص والسمات الاجتماعية والثقافية للسكان. يشاهد هنا ترتيب دقيق ومعقد للعناصر العمرانية والمعمارية فيه فصل وربط للناس في آن واحد وخصوصية ذاتية للأحياء والمساكن يستشعر بها الزائر للقرية أثناء انتقاله من فراغ إلى آخر، فهذه المظاهر تنطوي عليها مفاهيم قيمة مناسبة لتصميم مشروعات الإسكان الحالية في المناطق الجديدة في "آل الخلف" بشكل خاص وفي المملكة العربية السعودية بشكل عام لقد قدم لنا سكان "آل الخلف" حقّا نموذجا طيبا وفريدا من نوعه لتخطيط وتصميمها البيئة العمرانية.

لقد أثبت نموذج التصميم العمراني التقليدي في العديد من الحالات قدرته على التفاعل مع الأوضاع والأحوال المحلية والاستجابة لمتطلباتها واحتياجاتها إلا أن الأوضاع المعيشية الحاضرة تستدعي تنظيما مختلفا للبيئة العمرانية، إذ لم يبق للأشكال العمرانية للمباني التقليدية بالرغم من جمالياتها البصرية، في أفضل الأحوال سوى إعلامنا عن كينونتها في مكان ما وزمن ما.

لقد اقتصرت محاولات العديد من المهتمين بالعمارة على مجرد تكييف أشكال البناء التقليدية دون وعي وفهم للمحيط الاجتماعي والثقافي الذي نشأت وتطورت فيه مثل ما هو ماثل في قرية آل الخلف، إذ تظهر أهمية العوامل الاجتماعية والنسق القرابي والتركيبة الأسرية على عمليات تنظيم واستخدام الفراغ الداخلي.

اعتمد تصميم الشكل البنائي في القرية على قاعدة تسخير العوامل الاجتماعية، والفيزيقية، والإنسانية الفردية وجزئياتها في تنمية المخطط والتكوين الفراغي للقرية، وعلى الرغم من أنها قاعدة غير هندسية إلا أنها قوية وبسيطة.

هناك منطلق فكري يضع في اعتباره جميع المتغيرات الموجودة في التأويلات والتغيرات المتعددة للعمارة التقليدية بصورة تكميلية. ويشمل العوامل الاجتماعية، والفيزيقية، والإنسانية الفردية وجزئياتها.

لسنا هنا بصدد نسيج الماضي ومحاكاته، وإنما لصياغة مفاهيم وأفكار ودروس من خلال الوعي التام والإدراك الواضح للمناهج التقليدية التي استخدمها الأسلاف ونجحوا في تحديهم لمواردهم المحدودة وللطبيعة القاسية التي كانوا يعيشون فيها.

يستفاد من التكوين العضوي للفراغات والممرات التقليدية المتعرجة في البنية العمرانية للقرية، والذي يعزز بدوره الإحساس بشخصية البيئة التقليدية، دروسا تكمن في إثراء منهج التصميم العمراني. هذا الإحساس يزداد لو نظرنا إلى ذلك التكوين العضوي لقرية آل الخلف من الجو أو أثناء التجوال فيها. فهذا التتابع الفراغي لم يكن عشوائيا، وإنما تم بفعل سلسلة قرارات تخطيطية وتصميمية منطقية اتخذها مهرة البناء والسكان ومتخذو القرار من عِلية القوم وهم هنا أهل الحل والعقد، والبناؤون والمستخدمون معا ينهلون من بوتقة واحدة.

لقد كان تصميم الفراغ المفتوح أو المغلق متسقا مع التخطيط العضوي للقرية، وكانت محصلة ذلك تحقيق هيكل عمراني يتميز بنسق منطقي بين الفراغات الخاصة وشبه الخاصة والعامة. ولم يكن أي من تلك الفراغات غامضا بل كان لكل منها استخدامه ووظيفته الرئيسية المحددة.

يعمل تشكيل الفراغات على تكوين علاقات حسية جمالية بين الفراغ والإنسان أثناء انتقاله فيه في تتابع فراغي منطقي ضمن المحيط العمراني للقرية. ولقد أدى التطابق في استعمالات الأراضي وتناسقها مع شبكة حركة المشاة إلى الاستخدام الاعتيادي للمكان والتآلف معه.

تمتاز قرية آل الخلف بوجود شريان رئيسي للحركة يربط شمال القرية بجنوبها، وتتعامد عليه شرايين خطية بعضها مغطى على شكل ساباط استغلت لحركة وانتقال المشاة، وكذلك لتحديد الأحياء السكنية.وكان للتفاوتات في نسب ارتفاع المباني لعروض الممرات والأزقة تأثير كبير على الإدراك الحسي والنفسي لها، إذ يصبح الإحساس الطاغي أثناء الحركة فيها هو شعور الاحتواء والحماية.

قد تكون التكوينات العمرانية للمستوطنات البشرية تحددت بالمحيط الإنساني ذاته، إذ بالإمكان تصور أن تكون مثل تلك التكوينات العمرانية كسائر نتاجات الحضارة إظهارا لميول أصلية أو لعادات وأعراف وتقاليد خاصة بمجتمع ما. ومثل تلك الميول أو التقاليد كانت في بدايتها قادرة على الاستجابة للمتطلبات الدفاعية أو أن نشوءها كان مشروطا بتنظيم الملكية.

ومع هذا لا تقتصر جماليات المعمار التقليدي على النماذج المعمارية المشيدة بل تتعداها إلى ما ينطوي عليه المعمار من جمال الأحاسيس والمشاعر للمشاركين في عملية البناء والتشييد ذاتها.

فانبهار الأصدقاء والأقارب والمجاورين والملاك عند رؤيتهم لمعلم البَنّاء وهو يتناول من معاونيه ما يقذفون إليه في الهواء من لبنات ولقم الطين وصفائح حجر الرقف ليضعها في مكانها المناسب، والأهازيج والطقوس الشعبية المصاحبة لعملية البناء تعد جزءا من فعاليات الجمال المعماري.

نشوء قرية آل الخلف التقليدية كأي مستوطنة كان على مراحل تبعا لزيادة السكان، تضاف في كل مرحلة بعض المكونات العمرانية لاستيعاب الزيادة في السكان مثل المساكن والطرقات والساباطات والمساجد والقصبات. وهذه يمكن اعتبارها امتدادا للنسيج العمراني للقرية. يمكن القول إن النسيج العمراني لقرية آل الخلف عضويا في تشكيله، لكنه كان بطيئا في تطوره من جراء تعاقب الأجيال عليه. وتعكس المباني والفراغات الترابط المتبادل للوظائف، كما تأخذ في اعتبارها احتياطات الأمن والدفاع، وكذا احترامها للمقياس الإنساني وبساطة الإنشاء. ولهذا كانت شاملة بالنسبة للسكان مما كان يعزز من الإحساس بالانتماء للجماعة واتساق التركيبة الاجتماعية.

أتاح التقارب العمراني فرصة للتآلف الاجتماعي ضمن إطار المعايير والقيم الاجتماعية والثقافية الموروثة، كما أثر ترتيب وتنظيم الملكيات في إدراك الناس واستيعابهم للتكوين العمراني مما عزز من الإحساس بالرضا والقبول بهذا النمط المعيشي المستقر في القرية وهجر حياة البداوة والتنقل.

لقد تشكلت البيئات العمرانية التقليدية في ضوء مبادىء ونظم استمدت شرعيتها من الشريعة الاسلامية، ومن أعراف وقيم وتقاليد درج المجتمع على قبولها والسير بمقتضاها، في حين استند تكوين البيئة العمرانية المعاصرة على معايير كمية مقننة غير ملائمة للتغيرات في الاحتياجات والموقع. أما البيئة التقليدية فقد استندت في تكويناتها على معايير نوعية ومستجيبة للتغيرات في الاحتياجات أو الموقع، وهكذا تتسم النتائج الإجمالية التي أفرزها المنهج التقليدي في مجال البيئة العمرانية بتنوعها وتعقيدها.

تنظيم قرية آل الخلف التقليدية فيه دروس قيمة لمخططي ومصممي البيئات العمرانية المعاصرة، تشمل الاستخدام الرشيد للأرض، وتوزيع الفراغ بأبعاد ثلاثية للأغراض السكنية وغير السكنية. ويظهر التأثير الفاعل والنافع للتعاليم الإسلامية في تصميم الفراغات داخل المساكن وخارجها مما يعكس نجاح النمط التقليدي في تلبية الاحتياجات العمرانية، وكذا النفسية للسكان.

لقد حققت قرية آل الخلف خلال المرحلة التقليدية تنمية عمرانية وزراعية مستديمة على مستوى القرية، وعليه، نرى أن يتم الحفاظ على العديد من مظاهر القرية كالبنية الشكلية للقرية في الأزقة والفراغات والمعالم البارزة من مساكن وقصبات وأراضٍ زراعية، والتي قد تؤثر على التنميات الجديدة، وذلك للحفاظ على حجم مناطق التوسع والسيطرة عليها.

كما فَتَّحَتْ نتيجة هذه الدراسة قنوات في مواجهة وحل مشكلات البيئة المعاصرة والمستقلة من حيث التخطيط والتصميم فيما يتعلق باستخدام الفراغ واتساق ترابطاته. كما تصنع هذه الدراسة نظريات لا تقليد فيها للماضي، وإنما إفادة من تجارب ذلك الماضي كمصدر وأرضية للتخطيط والتصميم، مع الأخذ في الحسبان تخطيط البيئات العمرانية الجديدة وتصميمها في المملكة العربية السعودية، على سبيل المثال لا الحصر، السمات الثقافية المحلية، الاعتبارات المناخية، والاستجابة لاحتياجات الناس، وتأكيد الشخصية المحلية لتلك البيئات العمرانية، والإفادة من الشواهد البيئية المماثلة في البيئات العمرانية التقليدية، والمتوافقة مع الوسائل الحديثة.

المراجع

[١] Jameson, Michael H. "Domestic Space in The Greek City-State". In: *Domestic Architecture and The USE of Space: An Interdisciplinary Cross- Cultural Study"*. Susan Kent, (Ed.), Cambridge: Cambridge University Press, Cambridge, 1990.

[٢] مصلى، محمد سعيد؛ شاكر، فريد امين؛ منديلي، عمر عبد الله. *"التعرف على النمط العمراني في المملكة العربية السعودية: الاقليم الاوسط*. لندن: ART AND ARCHAEOLOGY RESEARCH PAPER # 1 ، ١٩٧٧م.

[٣] الهذلول، صالح بن على." تطور المستوطنات في منطقة نجد في القرن الرابع عشر الهجري: البدائع في منطقة القصيم كحالة دراسية" في: *المدن السعودية توزيعها وتشكيلها*. (تحرير أسعد عبده)، الرياض: مطابع جامعة الملك سعود، الرياض١٩٨٣.

[٤] Mubarak, Faisal A. "Urbanization, Urban Policy and City Form: Urban Development in Saudi Arabia", Unpublished Ph.D. Dissertation, University of Washington, (1992).

[٥] آل زلفة، محمد بن عبد الله. *لمحات عن العمارة التقليدية في منطقة عسير*. الرياض: مطابع الفرزدق التجارية، ١٤١٥هـ.

[٦] Al-Shayeb, A.A. *Al-Jubail Saudi Village: Architectural Survey*. Doha: The Arab Gulf States Folklore Center, Qatar, 1985.

[٧] القحطاني، عبد الله. *برنامج التراث العمراني في المنطقة الجنوبية*. الرياض: وزارة الشؤون البلدية والقروية، ١٤١١هـ.

[٨] Mansouri, Abdulmohsen. "Periodic Markets in the South- Western Region of Saudi Arabia: A Study in Human Geography". Unpublished Masters Thesis, Michigan State University, Lansing, 1977.

[٩] Rapoport, Amos. *History and Precedent in Developmental Design*. New York: Plenum Publishing Corporation, 1990.

[١٠] Banz, George. *Elements of Urban Form*. New York: Mc Graw-Hill Book Company, 1970.

[١١] Korn, Arthur. *History Builds The Town*. London: Lund Humphries & Co. Ltd., 1953.

[١٢] Moholy-Nagy, Sibyl. *Native Genius in Anonymous Architecture in North America*. New York: Schocken Books, 1976.

[١٣] Abdulfattah, Kamal. *Mountain Farmer and Fellah in Asir, South-West Saudi Arabia: The Condition of Agriculture in a Traditional Society*. Ernlanger: Geographische Arbeiten, Sonderband, 12, Germany, 1981.

[١٤] البشري، نائف بن صالح." التغيرات البيئية في قرية آل الخلف ببني بشر قحطانٌ. بحث نال به المؤلف درجة البكالوريوس، جامعة الملك سعود فرع أبها، ١٤١٣هـ.

[١٥] Geoffrey King. "Some Observations on The Architecture of South West Saudi -Arabia", *AAQ*, 8, No. 1 (1976).

[١٦] الحريري - الرفاعي، وهبي. *عسير: تراث وحضارة*. الرياض: شركة العبيكان للطباعة والنشر، ١٤٠٧هـ

[١٧] Aloshban, Abdulaziz, Al Qabila. "Inter-Group Relations, and the Environmental Context of Bani-Shiher in Southwestern Saudi Arabia,". Ph.D. Dissertation, Northwestern University, 1987.

[١٨] السيارى، أحمد بن صالح. *الباحة*. جده: مؤسسة المدينة للصحافة، دار العلم، ١٤١٥هـ.

[١٩] العسيري، أنور محمد خليل. *لمحة عن بعض المساجد الأثرية في عسير. بيادر*: ملف ثقافي إبداعي يصدر عن نادي أبها الأدبي، العدد الثالث (١٤١٠-١٩٨٩م)، ص ص ٣٠-١٣٩.

[٢٠] إبراهيم، عبدالباقى. *التراث الحضارى في المدينة العربية المعاصرة*. الكويت: مطبعة حكومة الكويت، ١٩٦٨م.

[٢١] Abu- Ghazzeh , Tawfig M. "Vernacular Architecture Education In The Islamic Society Of Saudi Arabia: Towards the Development of Authentic Contemporary Built Environment". *Habitat International* , V-1.21, No.2 (1997) , 229 - 53.

[٢٢] King, R.D. *The Historical Mosques of Saudi Arabia*. London: Longman, 1986.

[٢٣] ابن صالح، محمد عبد الله. "عمارة المساجد في المناطق المعزولة: قرية آل الخلف. حالة دراسية". *مجلة جامعة الملك سعود(العمارة والتخطيط)*، ٨ (١٤١٦هـ)، ٤٥-٦٧ (باللغة الانجليزية).

[٢٤] Abu Ghazzeh, T.M. "Human Purposes and the Spatial Formation of Open Spaces: The Al-Alkhalaf, Saudi Arabia". *Arch. & Comport./Arch.& Behav.* 10, No. 2 (1994).

[٢٥] مصطفى، أحمد فريد. *امكانية تحقيق مقومات ومبادىء المدينة العربية الاسلامية في التخطيط العمراني المعاصر*. الرياض: أمانة مدينة الرياض، ١٩٧٠م.

[٢٦] Atwah, Ali Yahya. "Identification and Understanding the Cultural Landscape of Arabia". Unpublished Ph.D. Thesis , University of Edinburgh, 1992.

[٢٧] الشاهين، إبراهيم ماجد.*التطور العمراني في دول الخليج العربية*. الكويت: مطبعة السلام، ١٩٨٧م.

[٢٨] Talib, Kaizer. *Shelter in Saudi Arabia*. London: St. Martin, 1984.

[٢٩] البراهيم، محمد حسي."انتقادات للعمارة الحديثة في المملكة العربية السعودية". *مجلة جامعة الملك سعود (العمارة والتخطيط)*، ٢ (١٤١٠هـ)، ٦٣-٨٠ (باللغة الإنجليزية).

[٣٠] ماجد، إبراهيم عيسى. "المتغيرات في عمارة المسلمين المعاصرة وثوابتها". *المهندس*، (يوليو - ديسمبر، ١٩٨٥م)، ٢٧-٣١.

[٣١] طاشكندى، فرحات خورشيد. *"التراث والمعاصرة في العمارة: تعريف". ندوة الحفاظ على التراث العمراني الخليجي المميز*. (١- ٣ اكتوبر ١٩٩٤م). الدوحة: قطر.

[٣٢] Ishteeaque, Ellahi M. "Paradigms and Styles: Saudi Native Architecture". *The Arabian Journal for Science and Engineering*, 15, No. 1 (1990), 3-15.

The Growth and Development of Urban Fabric of the Settlements of the Highlands of Southwestern Saudi Arabia During One Hundred Year: A Case Study of Al-Alkhalaf Village

Mohammed Eben Abdullah Eben Saleh
Department of Architecture & Building Sciences, and Dean, College of Architecture & Planning, King Saud University, Riyadh, Saudi Arabia

Abstract. The reliance of most urban planning specialists (anthropologists, sociologists and architects) on the structural details of urban built forms when describing the traditional, transitional and contemporary built environment is considered one of the practical techniques of urban modeling. The research depended on a structuralist approach when study the principles and orders of the organic and geometrical urban forms (the traditional and contemporary) respectively and their relationship with the building system and construction which had been used to organize the urban built form of Al-Alkhalaf village in the highlands of southwest Saudi Arabia. When any one emptifies the habitable architecture from its relationship with the purpose, then the design of villages, towns and cities becomes merely an art for urban forms which has been avoided in this study.

The structuralist approach can be clarified according to the following:
Firstly, the naming of traditional settlements in Saudi Arabia implies tribal name, person, place, historical event, topographic attribute or prevailed economic activity. The name of Al-Alkhalaf refers to its founder Khalaf Eben Yaʿala Al-Bishri who first settled in Al-Alkhalaf since the seventeenth century. Secondly, the selection of the site is selected carefully according to strict criteria to fulfill both security and economic needs. Security came as a consequence of political disorder where the Arabian peninsula was living under inter-tribal raiding while economic needs is reflected by the abundance of defensible arable lands and rain water. Thirdly, the gradual physical planning of the urban fabric of the village considered priorities like the social structure, defense requirements, and the basic needs (economic and climatic). These factors had a major role in the origin, evolution and development of the urban fabric of the village till today. The viewer of the village sees the tower-like residential buildings turning their back to the outside resembling a defense wall encircling the village, penetrated by winding alleyways connecting the residential buildings with arable lands and crowded paths of farmers and animals.

The urban fabric of Al-Alkhalaf consists of residential buildings of different heights, weekly market, three mosques, defense structures, exchequer, underground storages and cemetery. While the surroundings contains numerous agricultural fields by their distinguished underground water wells and circular towers for the purpose of watch, warning and defense. The owned elements occupied all spaces except those designated for movement (alleyways, sabat). The design and dimension of buildings and open spaces in the village are considered two distinctive aspects in its architecture while the built form for the village emphasizes the connection with the land more than any form of expression in addition to the assertion of visual dialogue between the natural and made beauty.

The contrast between the urban pattern of villages in the highlands of the southwestern Saudi Arabia appeared as a result of historical development for residential, cultural and religious buildings. The mosque is the nucleus of the urban fabric of residential quarter. It has both religious and significant importance in the design of the residential quarter and the village.

The continuous drawbacks in conceptual ideas of local urban planning in front of the flow of invading concepts coming from abroad has weakened that effect. So, there is no escape from a new planning look which invite the planners, architects and researchers in the field of planning and architecture in their stand from inclusion of urban and architectural heritage in the contemporary planning and design of residential quarters and public buildings in the urban environment with an aim beyond the survey and record of such rich heritage which is exposed to loss through time. But the problem is how to find a way to comprehend and understand and precept the hiding meaning in the heritage formation and built forms.

From this concern, the importance of this research comes. The analysis of the urban, architectural, artistic and decorative elements of villages especially Al-Alkhalaf fulfills the purpose of utilization them in the new contemporary practice. Such helps in structuring new syntax in the face of invading and flowing urban and architectural trends. From this the author views the mechanism behind the formation of local urban and architectural characteristics which defined the general scene of the village as a new dimension for the way where the new urban developments can be presented.